فى الحديث النبوى

رؤية أدبية

جهاد للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

لوحة الغلاف: الفنانة مريم عبد العليم

الكتـــــاب: في الحديث النبوي «رؤيـة أدبيـة»

المـــؤلـــف: أبو همّام عبد اللطيف عبد الحليم

إخـــراج فني: زينب طيبي

الطبـــعـــة: الأولى / ٢٠٠٤

رقـم الإيـداع: ٥٧٥١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: ISBN 0 - 13 - 5684 - 977

النـاشـــــر: دار جهاد للنشر والتوزيع

٢٦ ش إسماعيل أباظة بجوار محطة مترو انفاق سعد زغلول .

لاظوغلي ☎: ٧٩٦٤٧٨٣

فى الحديث النبوى

رؤيـــة أدبيـــة

أبـو همّـام
عبداللطيف عبدالحليم

دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٤



الإهداء

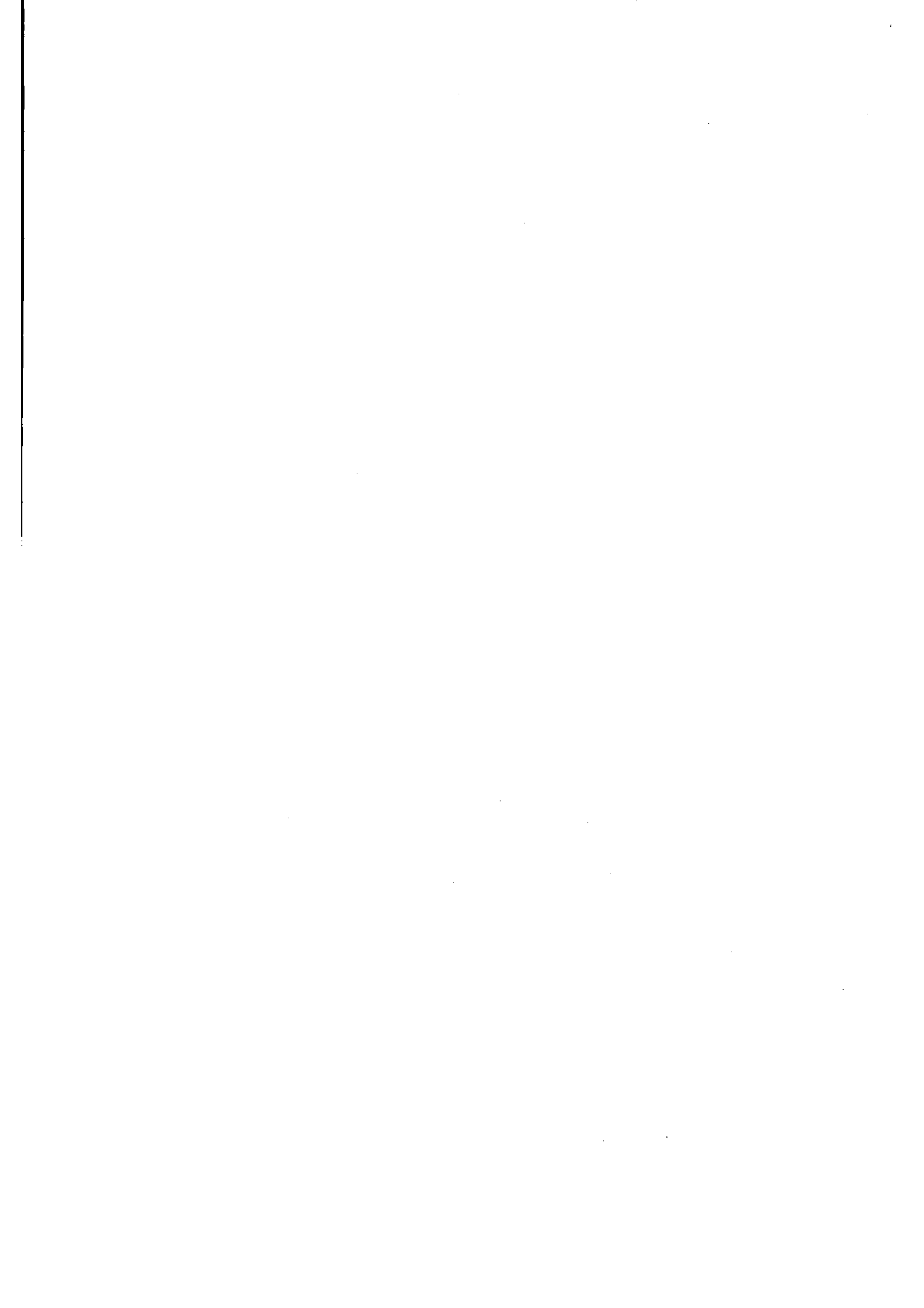
إلى أخى وصديقى العلامة الجليل الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم

أنشدك قول ابن الرومى :

كـدأب «عـلـى» فـى المواطـن قـبله

«أبى حسن» ، والغصن من حيث يخرج

أبو همّام



بين يدي الكتاب

لا أريد أن أقحم نفسي على القارئ، وحسبي أن أدعه يواجه هذه الرؤية الأدبية للحديث النبوي الشريف، وهو علوان وحده في البلاغة العربية بل والإنسانية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١) وقد تعددت الرؤى للكلام النبوي ما بين حديث وفقه وأصول. كلٌّ يولي وجهه شطر ما يريد، غير أنني حاولت أن تكون رؤيتي أدبية خالصة، وإن استعانت أحيانا ببعض الرؤى الأخرى.

وأعتقد أن هذه الرؤية لا تتيسر كثيرا في المصادر الأدبية التي عالجت النثر الإسلامي، وفي صدارته الكلام النبوي، ومن ثم كانت الحاجة - في تصوري - لهذه الرؤية دون أن أفتئت علي الدلالة العربية في هذه اللغة الشريفة، بل كنت أقف متأملا تلك البلاغة كما يمثلها في قمتها وروعتها رسولنا الكريم ﷺ.

(١) النجم/ ٣.

كما أعتقد أن الحديث ليس وحيا إلهيا يوحى به الله إلى رسوله كما هو الحال فى القرآن الكريم، بل هو من إلهام الله فى المعنى لكن التعبير للنبى العظيم، وهو أفصح الناس وأبينهم.

وهذه المختارات ربما تتبعها مختارت أخرى، حيث أتوفر على بعض الأحاديث بتلك الرؤية وهذا المنهج.

وإنى لأرجو أن يحيا القارئ مع هذا الكلام الذى هو ذؤابة الكلام العربى ما حييت، وأن يشاطرنى بعض ما رأيت، وحسبى أننى عشت روحانية هائلة فى ظلال هذه الكلمات الشريفة، غير زاعم إلا الاقتراب من كلام سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم؛ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

أبو همّام

المعادى - ٢٠٠٤

[١]

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: «يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن اليهم ويسيئون إلىّ وأحلم عنهم ويجهلون على فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك». (صحيح مسلم).

يعالج هذا الحديث بعض الطباع الإنسانية، ويضع يده على جرح شديد غائر، خاصة حين تكون العلاقات الأسرية، وينبغى أن تكون القمة فى الصفاء والمودة والرحمة، قائمة علي التدابر والقطيعة والتنافر، شىء يحدث فى كل جيل وقبيل أن تجد الأقارب وذوى الأرحام على غير المتوقع، بل يكون المتوقع والأمر المألوف أن نجدهم متشعبى القلوب والأهواء، كالزجاجة كسرها لا يشعب، جاء هذا الحديث وغيره مما هو فى واديه يعالج هذا الداء المستشرى بين الأقارب، وهو كثير الحدوث لأن النفس موكلة أن ترى ما هو قريب منها، فإذا تقدم عليها تسللت نوازع الغيرة والحسد إلى النظائر فتكون القطيعة والتدابر، والمفروض أن يوجد مكانهما المودة والرحمة.

وتكون شكوى الرجل الذى تقدم إلى النبى ﷺ شكوى الإنسان الذى أعيته الحيل أن يستل سخيمة أقاربه وأن يزرع شجر الود فى تربة أفئدتهم بدلا من شجرة الحنظل والكراهية المغروسة فيها، والشكاية أن الرجل هذا يصل رحمه ويتوقع أن يجابه أو يعامل بالمثل على الأقل، لكنهم يقطعون حبل الاتصال الذى يبسطه الرجل بينه وبين أقاربه، ويحسن إليهم، ويقابلون إحسانه بالإساءة، ويحلم عنهم وهم يجهلون ويبغون عليه والجهل هنا هو الفظاظة وسوء العشرة لا الجهل ضد العلم.

وفى هذا الأسلوب جمال فى المقابلات المتعددة التى تهب المعنى رسوخا وإيضاحا بين الوصل والقطع، والإحسان والإساءة، والحلم والجهل، وكأن الرجل حين يقدم كل هذه الأشياء، كان يأمل أن يجد مقابلا لما يزرع من خير، لكنها الأرض السبخة التى تأكل البذرة الصالحة، فلا تنبت ـ إن أنبتت ـ إلا العوسج والأشواك. ويجيء العلاج النبوى الذى يدرك معاناة هذا الرجل ومعاناة أمثاله فى كل عصر وبيئة، فيبدأ حديثه ﷺ محترسا بقوله: «لئن كنت كما قلت، ليكون لكلامه مصداقية، ولا يقول بغير علم مندفعا، كما يصنع بعض الناس فلا يعلم الغيب إلا الله، ويكون توضيح الإجابة بصورة من الحس وصورة منتزعة من البيئة، لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، أى تجرعهم الرماد الحار الملتهب لأنه المناسب لعملهم مع هذا الرجل الشاكى، وحسب هذه الصورة من

تنفير أن يكون الإحسان غير المقابل بمثله يكون مثل سف الرماد قسرا وإجبارا ودون رغبة، ومن الذى يرغب فى أن يسفه أحد بالعنف الرماد الملتهب الحارق للحناجر والقلوب، إنهم يسيئون إلى الرجل حين يحسن ويقطعون حين يصل ويجهلون حين يحلم فهم أولى إذن أن يتجرعوا غصص سف الرماد، لأنهم حاقدون حاسدون جاهلون لا يرضيهم إلا زوال نعمة هذا الرجل القريب الكريم.

ثم يؤكد الحديث بقية المعانى الكريمة، فيطلب من الرجل فى صورة خبر ليكون كأنه الأمر الحاصل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك، إنه يطلب منه أن يظل على علاقته الكريمة بهم، ولا عليه منهم ماداموا على ذلك لأن الله حسبه فى كل هذا فى تلك الحال وفى غيرها بالطبع إذا كان الأقارب لا يؤدون حق الصلة والإحسان إليهم فإن الله يتكفل بعون هذا الرجل وأمثاله ينصره ويعينه على فعل الخير، ويبث فى نفسه نوازع الصبر عليهم لأن الله ظهيره، ومن كان الله ظهيره فلا يتلقى أمور الناس والدنيا إلا بالرضا، والصبر على معالجة الأقارب.

وتقدم قوله: «معك - ومن الله على اسم لا يزال وهو ظهير، لأهمية المعنى المراد، لأن الرجل وحده أعزل حتى من أ قاربه، ولا يكتفون بالصمت بل يمدون أنفسهم بالإساءة إليه، فهو وحده فى هذه الحالة، ومن كان وحده - وهو بهذه الصفة الكريمة - فإن

الله معـه، وجـاء قـوله: «من الله» ليـؤكـد هـذا المعنى وهو إذا خـذله الأقارب فإن الله كافيه ومعينه، لكن بشرط ألا يمل من الإحسان وينصـرف إلى الإسـاءة، بل عليـه أن يظل ويداوم على الإحـسان والحلم والوصل.

والرحم مشتقة من اسم الله تعالى كما فى الحديث القدسى:«أنا الرحـمن خلقت الرحم وشـقـقت لهـا اسـمـا من اسـمـى فمن وصلهـا وصلته ومن قطعها بتته أى قطعته. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾، ولذا كان هذا الرجل يستحق أن يكون فى عون الله وفى رعايته لأنه يصل ما أمر الله به أن يوصل.

[٢]

حدثنا قيس قال: قام أبو بكر فحمد الله عز وجل وأثنى عليه فقال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية(١) ، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقابه»**.

(مسند أبى بكر الصديق ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل)

يشدد الإسلام على المؤمن فى النهى عن المنكر، ويلزمه الأمر بالمعروف فيأمره أن يقاوم المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا، حتى إنه حين يعجز عن مقاومته باليد واللسان، فالقلب يتقدم آنذئذ ليقوم بدوره، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢) فالأمر بالمعروف متقدم على النهى عن المنكر، ربما لأنه أهون، ولأن الاستجابة فيه متوقعة وأسهل على النفس، وختمت الآية بالإيمان

(١) المائدة /١٠٥. (٢) آل عمران/ ١١٠.

بالله، وكأنه ثمرة لهذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو هما من أمارة الإيمان بالله عز وجل.

وحين يحرص الإسلام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه يربى الإرادة الإنسانية، ويحرص على سلامة الفرد والمجتمع، ويبين دور الفرد فى عضوية المجتمع الكبير، وقد توعد ﷺ من يجاهر بالمنكر فيقول: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا فيستر الله عليه، ثم يصبح فيقول: فعلت كذا وكذا، فيكشف ستر الله عنه، وقد بات يستره ربه». (صحيح البخارى)

والمنكر مهما كان تافها يسيرا، فهو واجب التغيير، لأنه يستفحل ويضخم، والمرء الذى يصنع هذا المنكر اليسير التافه إنما يأتى بما هو أعظم وأشد حين يترك، أو يستهان به، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وربما يأتى بعد ذلك ولا يخشى أحدا فيعم البلاد، ويشذ بذلك عن أمر الجماعة المسلمة، فيخرج عن آداب المجتمع وضوابطه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». (صحيح مسلم)

والتغيير بالقلب إنما هو مسئولية الجماعة لا الفرد وحده، لأن المقصود أن تجمع هذه القلوب على مقاطعة هذا الذى يأتى بالمنكر

مكابرا، لا تنفع فيه اليد ولا اللسان، ثم تأتى بعد ذلك مسألة الدولة أو الحكومة.

والحديث يوضح آية كريمة، ربما فهمت على غير وجهها، وقيام أبى بكر رضى الله عنه خطيباً يوضح مرامى الآية، بما سمعه من صديقه محمد ﷺ حين قال: إن الناس إذا رأوا المنكر، والرؤية تقتضى التحقق لا الظن فقط، لأننا نهينا عن الظن، والرؤية كذلك تقتضى أن يكون المسلم يقظا، غير غافل، لا متطفلا، بل يحرص على مصلحة الأمة وعلى مصلحة أخيه المسلم بأن يكف أذاه، وبذلك يصلحه لصلاح نفسه وصلاح المجتمع، والحديث كذلك يحمل المسلم أمانة الرؤية لا أن يغمض عينيه غافلا أو متغافلا وكل هذا حققته لفظة «رأوا» وكأن المنكر وهو معنوى تراه عينا المؤمن وبصيرته، وللرؤية عامة مسئولية تضامنية فى هذا الحديث، وهذه المسئولية هى التغيير، وقد حدده النبى ﷺ فى حديث آخر، وله مراحله الثلاث، والفعل «أوشك» من ألفاظ المقاربة، ومعناه يوحى بالسرعة، لأن الناس آنذاك تطمئن إلى هذا المنكر ولا تغيره كما يجب، وهنا تتدخل قدرة الله عز وجل، فيعم الساكتين عن الحق الخرس عن أداء الواجب، الناكصين عما أمر الله به فيعمهم عقاب الله، وعموم العقاب جزاءوفاق لما ارتكبوه حين سكتوا عموما، والجزاء من جنس العمل، وكأن هذا الجزاء الإلهى قد أغرقهم، لأن مرتكب الخطأ مجاهر به، ورآه

الناس، وكأنهم رضوا بهذا الخطأ جماعتهم، ولم ينكروه، فضلا عن عدم فهم الناس للآية فإن الضلال المقصود فى الآية الكريمة هو الكفر لا ارتكاب المعاصى من المؤمنين لأن بعض المؤمنين كان يتحسر على أن أهله لم يؤمنوا كما آمن فقال الله لهم ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾. ولم يُعْفِ الله المسلمين من واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

لكن ينبغى أن يفهم أن مناط التكليف هنا لتغيير المنكر حين لا يستطيعه الفرد العادى بالحسنى، أن تقوم الأمة ممثلة فى الحكم بتغيير هذا المنكر لئلا تشيع الفوضي، ولكى يستتب النظام فى الأمة.

كما ينبغى أن يكون مفهوما أيضا أن وقوع الخطأ شيء عادى لكن غير العادى المجاهرة به، وسكوت الناس عليه، وإقرار المجتمع له، لأن الحالة هكذا نوع من الانتحار الجماعى للأخلاق ولكيان المجتمع، ولذا يكون العقاب عاما. ويكون وشيكا أو سريعا ومتوقعا.

[٣]

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟ فسكت، حتي قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم: «لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه».

(مسند الإمام أحمد بن حنبل).

الكلمات القلائل ذات المحتوى المعنوى الهائل سمة الكلام النبوى، فهو ﷺ يخاطب أمة بيان، يراعى مقتضى أحوالهم، فهم يعرفون سلفا معنى الحج، وإلا كان الكلام لغوا، أو يتوجه به إلى من لا يدركه، وفرضية الحج واضحة فى أذهان الكثيرين منهم على الأقل، ولولا ذلك لقال رجال كثيرون لا رجل واحد نفس السؤال؛ أكل عام يا رسول الله؟.

وأحيانا يكون السكوت عن الإجابة بلاغة، إذ يدرك السائل أن سؤاله فى غير موضعه، وكأنه تنبيه من المسئول أن يكون على حصافة ولوذعية تجعله يدرك تماما متى يتكلم ومتى يكون السؤال، ولذلك سكت النبى ﷺ والرجل يقولها ثلاثا، وكأنه ﷺ كان يود أن يفطن السائل من المرة الأولى أو الثانية، وكان الرد الحكيم العارف بطبع الإنسان، وبطبيعة الفرائض الإلهية التى لا تقسر الناس على خلاف المعهود فيها، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، وليس هناك حالة أخرى غير هاتين، الوجوب كل عام، وعدم الاستطاعة المفروضة عليهم، ويترك النبى ﷺ فرصة مراجعة وتأمل، ليأتى حرف العطف «ثم» الذى يفيد الترتيب والتراخى، ليعلم أمته عدم المجادلة وفتح أبواب الأسئلة التى يعقبها تكاليف ليس فيها غير العنت بالنسبة للأمة، فقال لهم: ذرونى أى اتركونى ما تركتكم، ليجىء سبب هذا الحكم وهو هلاك السالفين بكثرة السؤال، ومفروض أن المخاطبين يدركون المقصود «بمن كان قبلكم»، وهم - خاصة - بنو إسرائيل الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم واختلفوا فى أنبيائهم فسلط الله عليهم أنفسهم، وفى هذا إيحاء دقيق، وفقه حصيف، لأن هذه الأمة ينبغى لها ألا تتشبه بالسالفين من أبناء الأمم الأخرى، ولا يعنى ذلك أن السؤال محرم أو مكروه، بل ينبغى التلبث حتى ينتهى الكلام، فربما لا يترك المتحدث أية ثغرة تنفذ منها مثل تلك الأسئلة التى هى

دليل مجادلة، ثم يقرر عليه السلام لأمته لئلا تهلك أن تأتى من الأوامر ما تستطيع، أما فى حالة النهى فعليها أن تترك المنهى عنه لا محالة، وملحوظ، هذه الحلى اللفظية التى فى الحديث بين الأمر والنهى، والسجع بين سؤالهم وأنبيائهم، وبين الإتيان والترك.

ومعلوم ما فى الحج من تربية لإرادة المسلم وإذعان إيمانى بما فيه من أمور يقف عندها الفكر، كلثم الحجر الأسود فلا علة معقولة فيه، ولذلك جاءت كلمة عمر بن الخطاب ليقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك». (صحيح البخارى)

كما أن فى الحج التزاما بميعاد محدد، يوحد بين المسلمين ويؤمنون بهذا التوقيت، وفى هذا أيضا نبذ للفرقة وإيمان جازم نأتيه دون مجادلة «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج».

وفى الحج تصديق لكل ما جاء به النبى فى هذا الحديث يسأل السائل على قدر الضرورة، ويؤمن بالأمر الإلهى والنبوى، ويأتى منه ما يستطيع، ويدع ما نهى عنه.

[٤]

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(صحيح البخارى).

فى هذا الحديث لطائف بلاغية متعددة، ولا عجب فى هذا حين يرى الإمام الشافعى وآخرون معه هذا الحديث أنه ثلث الإسلام، وأنه يدخل فى سبعين بابا من أبواب الفقه، كما أورده الإمام البخارى فى سبعة مواضع من صحيحه، لكننا نتوقف عند طائفة من النكت البلاغية الواردة فيه:

جاء أوله بأسلوب الحصر «إنما» وهى تفيد أن كل الأعمال مدارها النية، ولولاها لما كانت أعمالا يعتد بها.

ثم جاء لفظ «الأعمال» وأل هنا للعهد أى الأعمال المعهودة المصطلح عليها من أعمال المؤمنين، وأنها أيضا أعمال الطاعات

والقربات، لا العصيان والآثام، ثم ما تدل عليه تلك الكلمة «الأعمال» من الفعل والقول معا، لأن للسان عملا يؤديه بوسيلته النطقية، وهو مناط الثواب، وإلا خرج عن الأعمال التى يحاسب عليها الإنسان. وتجيء كلمة «النية» وتعنى الباعث على العمل والإرادة المتجة نحو الفعل ابتغاء مرضاة الله وامتثال أمره.

وواضح أيضا أن هذه الأعمال هى أعمال المكلفين شرعا ولأن أعمال غيرهم لا يترتب عليها هذا الحكم من ثواب أو عقاب، كما أن الأعمال تعنى أعمال العبادة والأعمال العادية إلا إذا قرنها المسلم بالنية الخالصة لله فيثاب عليها، وهذا أمر يجب على المسلم أن يعيه.

ويجيء قوله ﷺ وإنما لا مرئ ما نوى، مرة أخرى بأسلوب الحصر، ومعناها وإنما لكل امرئ ما نوى كما جاء فى روايات أخرى للحديث، وهذه العبارة توضح ما يترتب على العبارة السابقة من نتائج، كما تشرح المسئولية الإنسانية حين يزمع صاحبها أمرا صالحا أو طالحا، يتحمل تبعته، وإنما لكل امرئ جزاء نيته، وثواب ما قصده.

كما توضح العبارة من طرف خفى أولئك المنافقين المرائين الذين لا يقصدون وجه الله بأعمالهم، وما كذلك شأن المسلم الصالح الذى يبغى بعمله مرضاة خالقه لا مرضاة المخلوقين.

والأعمال هنا كذلك ما يحققها المسلم أو ما يكف عنها جين

توسوس له نفسه الأمارة بالسوء، فالأعمال بالسلب وبالإيجاب، إذ يثاب المسلم حين يكف عن عمل الشر خوفا من الله وخشية منه، «إنما تركها من جراى» كما يقول النبى فى حديث آخر.

ثم يجئ لفظ الهجرة، وهو له معنى لغوى، وشرعى، وعام لكنه هنا محدد بترك ما يكرهه الله إلى ما يحبه فى القول والفعل والضمير، برغم أن الحديث جاء فى مناسبة خاصة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون.

وأسلوب الشرط «من» فى الفقرتين الأخيرتين، وجواب هذا الشرط المختلف لاختلاف النية، فمن قصد الله بهجرته وطاعته وكذلك رسول الله ﷺ فحسبه أن يكون ثوابه عند من يملك هذا الثواب ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فهجرته إلى الله ورسوله، وهذا حسبه من ثواب، أما من كانت هجرته إلى دنيا، وهى منكرة للتجهيل والتحقير وهوان الشأن، أو امرأة يتزوجها فحسبه أيضا أن تكون هجرته إلى ما هاجر إليه، وما هنا لغير العاقل، وكأن فى هذا حثا للمسلم أن يراعى ألا تهبط إرادته إلى هذا الدرك السحيق الذى لا يليق به، فلا يكون من جنس العقلاء، ولا يعنى ذلك أن يهجر المرء المسلم الدنيا أو الزواج، بل عليه أن تكون نيته متجهة إلى خالق الدنيا والإنسان، وبهذا نصبغ أعمالنا الدنيوية بالصبغة الإلهية الشرعية، وأن تتحرر إرادتنا من كل رق العبودية إلا للواحد الخالق عز وجل.

[٥]

عـن مـعـاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قـاسم والله عـز وجل يعطى، ولن تزال هذه الأمـة قـائمـة على أمـر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله».

(صحيح البخارى).

لهذا الحديث واقعة طريفة تقول إن رسول الله ﷺ كـان يوزع الصدقات على المستحقين، فاعترض أحدهم على القسمة فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويحك؟ من يعدل إذا لم أعدل.

وهذه المناسبة الطريفة كانت مدعاة لبداية الحديث الشريف؛ إذ إن المعترض لو كان متفقها فى دينه، عارفاً برسوله حق المعرفة لما جـرؤت نفسـه على هذا الاعـتـراض، ولذلك جاء أول الحـديث يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وعدم الفقه دلالة على نقص الخير، وعدم إرادة الله لصاحبه، وفى هذا تلميح دقيق إلي جانب أن العبارة حكم عام، لكنها تدل على تلك الواقعة، وعلى المعترض أن يتريث كثيرا، لئلا يكون فى سلك غير المتفقهين.

وجاء لفظ الخير منكرا ليدل على مطلق الخير وجاء لفظ يفقهه جوابا للشرط، والفقه هو الفهم من الفعل فقُه إذا صار فقيها، وصار الفقه سجية له، وفقَه بالفتح إذا سبق غيره إلي الفهم، وفقِه بالكسر إذا فهم، ولا بأس من صرف المعنى إلى كل هذه المعانى الثلاثة حسب الصيغ الثلاث.

لكن الفهم هنا مشروط بالدين، فى مطلق أحكامه وإن كان الحديث لا يمنع أن تكون إرادة الله الخير للإنسان أن يفقهه فى كل أموره الدنيوية أيضا، مادام يبحث عن عمارة الكون، إلا أن التفقه فى الدين خير من كل هذا أو أرقى درجة، وملحوظ أن الفقه يصحبه العمل به، ولذا يمكن أن يكون الخير فى الحديث الخير فى الدنيا والآخرة.

وجاءت عبارة «وإنما أنا قاسم» بلفظ القصر لتحدد الدور النبوى الذى يقسم الأنصباء بين مستحقيها أما المعطى الحقيقى فهو الله عز وجل، لأن النبى واسطة أو أداة أجرى الله على يديها هذه القسمة.

والتعبير باسم الفاعل «قاسم» يدل على الثبات أما «يعطى» فيدل على التجدد والحدوث بصيغة الفعل المضارع بحيث تتوالى نعم الله وعطاءاته، ويناسبه (عزوجل) حيث إن العزة والجلال من صفات المعطى سبحانه وتعالى.

ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله أى دين الله وشريعته، وأن هناك طائفة تتفقه فى الدين وتعمل على إنفاذه، لا تضرها مخالفة المخالفين، ولا يثنيها عن إجرائه عقبات، لصلابتها فى الحق، وإقامة حدود الله حتى يوم الساعة، أى أن الخير قائم فى هذه الأمة فى كل عصورها ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١).

وفى التعبير «بلن تزال» يفيد الاستمرار، ورؤية المستقبل، ومعرفة أن المستقبل للدين ولهذه الأمة، وفى هذا إبعاد لشبح اليأس والقنوط الذى يرين أحيانا على وجوه بعض العصور الخابية الكابية، لأن صمود الإسلام والمسلمين فى لحظات الضعف والانكسار لا يقل شأنا عن لحظات الزهو والانتصار فى حياة هذه الأمة المسلمة. ويعنى ذلك أيضًا أن التفقه فى الدين ومعرفة أحكامه بدقة لن يخلو عصر منها، فهذا الاستمرار لوجود هذه الطائفة فى الأمة إنما هو استمرار مصدره الاجتهاد فى الدين، وعدم قصره على زمن معين.

كما أن فى الحديث حسن تأت من الرسول مع المعترض، إذ لم يغلظ له القول، مع أن المعترض أغلظ فيه، لكنه الأدب النبوى والتربية النبوية التى تجتذب الناس بالحسنى، والتى تتسرب إلى

---

(١) التوبة/ ١٢١.

نفس المعترض، فإذا به يهتف راضيا مع المعترض عليه، ويدرك فى الحال أنه كان على غير صواب، ومفهوم كذلك أن بنية الأمة قوية تستطيع أن تهضم كل هذه الاعتراضات وأن تحيلها إلى دم فيه تجديد وحياة لها، وواضح أن رأفة النبى بأمته فوق كل مستوى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

(١) التوبة/١٢٨.

[٦]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الشجرة شجرة لا يسقط ورقها، وأنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبدالله: ووقع فى نفسى أنها النخلة، فاستحييت ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله، قال: هى النخلة». (صحيح البخارى).

الوحدة الكونية بين الإنسان وبقية مخلوقات الله باب جيد، إذ بين عناصر الكون كله أواصر ورحم ماسة، ولم يكن غريبا أن يدرك ﷺ تلك العلاقة بين الإنسان وبين نظرائه، لأن نظرته الرحبة والإنسانية تتسع فتشمل الموجودات بعطفها، وتساجلها المودة ولذا كان جبل أحد يحبنا ونحن نحبه، كما فى الحديث الشريف، (صحيح البخارى) فكل ما يريق عليه الإنسان عطفه، ويشمله بإحساسه فهو شىء إنسانى رفيع، ولا أدل على هذا التلاحم الموصول بين وشائج المخلوقات من هذا الحديث الذى يربط فيه بين الإنسان المسلم وبين النخلة، وفيهما مشابه كثيرة توقف أمامها

علماء النبات والعلماء عامة، إذ رأوا أنها الشجرة الوحيدة التى إذا انقطع رأسها ماتت مثل الإنسان، ولا كذلك بقية الشجر، كما رأوا أنها لا تثمر إلا بالتلاقح، وإذا غرقت تموت، ولأنها تعشق إلى آخر هذه المشابه التى تؤكد صدق هذه الوشيجة بين الإنسان وبين النخلة.

وللحديث روايات متعددة، وله حكاية أو مناسبة ذكرها ابن عمر وهو فى طائفة من كبار الصحابة منهم أبوه وأبو بكر، وكان هو أصغر الموجودين.

وقد جاء الحديث هنا بوصف الشجرة، أن أوراقها لا تسقط فهى دائمة الاخضرار والتجدد الحيوى، وكذلك ينبغى أن يكون المسلم فلا تجف خضرة نفسه ولا فؤاده، وهى الشجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها والنخلة هنا مشبه والمسلم مشبه به، ووجه الشبه هو دوام النفع وكثرة الخير، وأن المسلم لا تسقط دعوته بل تشق طريقها إلى الملأ الأعلى، وهى تتجه إلى الخير.

وجاء الحديث بسؤال يتجه به النبى إلى الصحابة، وكان ثمة قرينة أنه كان ﷺ يأكل الجمار، وقد وقع الناس أى وقر فى أخلادهم أنها إحدى شجر البادية، أما ابن عمر فقد ظن أنها النخلة، لوجود القرينة عند السؤال، لكنه لصغر سنه استحى أن يجيب وفى المجلس كبار لهم قاماتهم الباذخة، وفيه دلالة على خليقة الحياء

المستحبة من الصغار فى مجالس الكبار، ثم تأتى إجابة النبى حين طلب صحابته منه ذلك، فقال: هى النخلة.

ولا ريب أن الصحابة أدركوا وجه الشبه حين تذكر النخلة لأنها أيضا من أشجار البادية، وهنا يستحب أسلوب التشويق فى التعليم، إذ يحمس النبى ﷺ أخيلتهم حين يلقى عليهم سؤالا أ ولغزا، لكنه ليس اللغز المعمى بل اللغز الواضح الذى يعطى دلائله ومفاتيحه حين يذكر النبى ﷺ وجه الشبه وهو عدم سقوط الأوراق، ولا يلزم أن يكون المشبه من جنس المشبه به فى كل وجوه الشبه، وإلا كان هو هو، ويبطل أسلوب التشبيه، وفيه أيضا تلك الصورة الرائعة للمسلم المرفوع الهامة، والجزيل النفع، والسابغ الظل، يفيد إخوته فى الإنسانية، كما أن كل شىء فيه - كالنخلة - يمكن أن يوجه الوجهة الصالحة لخدمة البشرية حين يقترن ذلك بالنية الخالصة، حيث تتجه إلى مرضاة الله عز وجل.

والنخلة نبات أو شجرة عربية، ولها صورة واضحة فى الأذهان، وفى هذا دلالة على انتزاع الصور من البيئة المحيطة القريبة من الأذهان، لا المغرقة فى اللغز والإبهام، كما أن فيها دلالة على كثرة الخير والنفع الذى يرجى من المسلم.

وفى الحديث دلالة واضحة على أن العلم يهبه الله لمن يشاء، بصرف النظر عن السن، لأن ابن عمر كان عاشر عشرة هو أصغرهم، لكنه الحياء الذى يعقد الألسنة الصغيرة أن تنطق ولو بالصواب حياء من الكبار، وهو باب جيد من أبواب التربية الإسلامية.

[٧]

عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «أن رجلا سأل رسول الله ﷺ ـ أى المسلمين خير؟ فقال: **«من سلم المسلمون من لسانه ويده» .** (صحيح مسلم)

المشاكلة باب من أبواب البلاغة، وهى هنا اشتقاق من الفعل «سلم» الذى جاء منه المسلمون أو الإسلام، وفرق بين الفعل «سلم» الثلاثى اللازم، و «أسلم» الرباعى المتعدى.

والإيجاز هنا أيضا من جوامع الكلم، إذ هو منهج تربوى دقيق، يليق بأهل الجاهلية كما يليق بأهل المدينة، إذ هو أيضا دستور جامع، لأن الإسلام يأبى على معتنقيه أن يكونوا وسائل إيذاء باللسان أو باليد.

وقد جاء تقدم اللسان لأنه أسرع استجابة وأقرب للأذى من اليد، ولأنه يستطيعه القوى والضعيف، أما الإيذاء باليد فيحتاج مرحلة أخرى ربما يراجع فيها المرء نفسه، فيكف هذه الجارحة عن أن تعمل عملها فى الإيذاء، ولأنها تحتاج إلى شىء من قوة المجابهة فتمتد اليد حينئذ، ومن ثم جاء الترتيب المتسق مع الطبيعة

الإنسانية، وإن كان إيذاء اللسان فى أحيان أخرى يكون أشد من وقع السنان الذى تقذف به اليد.

وقد جاء التعبير هنا مجرد مثل فيما نعتقد وإلا فإن الجوارح الأخرى يمكن أن تؤذى، فالذى يملأ عينه من شيء غيره كما يقول الشاعر الحجازى يؤذى، والذى يتسمع ما لا يعنيه يؤذى بأذنه، لكن جرت العادة أن يكون اللسان واليد أبرز جارحتين في هذا الإيذاء، ولذلك جاء النص عليهما، كما أن النص على الجوارح الأخرى موجود فى أحاديث أخرى تبين ما تقوم به هذه الجوارح من إيذاء يجب أن يتنزه عنه المسلم الصحيح.

وفى رواية أخرى للحديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وكأن «آل» التعريفية هنا لتوضح أن المقصود هو المسلم الكامل الإسلام الصحيح العقيدة والضمير، وتعنى أيضا حصره في هذا النطاق وإلا خرج حين يؤذى غيره من دائرة الإسلام الصحيح، ولذا يقول ﷺ فى حديث آخر «إن شر الناس عند الله منزلة من تركه الناس اتقاء شره» (صحيح البخارى). «وأن الشديد ليس بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب». (صحيح البخارى)

هذا الحديث أيضا فقه حصيف بالنفس الإنسانية من المربى العظيم لهذه الأمة حين يعطيها مثل هذا الدستور الأخلاقى، فالسلامة من الإسلام، والإيذاء انحدار عن مدارك الإسلام العليا،

ومدارج الإنسانية الرفيعة، ويأبى الله ورسوله أن يكون المسلم فى درك الانحدار هذا حين يتوجه إلى إخوته بلسانه ويده مؤذيا، جارحا، وكأنه ينحط بذلك إلى درك من الانحدار لا يليق بمسلم يحترم أمانة الله التى حملها إياه، وكأنه أيضا ينحط عن درك العجماوات إذ لا لسان لها تؤذى به، وحين تؤذى بجارحتها فإنما تنساق لذلك بدافع الغريزة، وهل يكون المسلم كذلك إلا إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه.

إن صيانة المسلم من النفس الأمارة بالسوء وصيانة أخيه المسلم من تلك النفس هدف إسلامى رفيع، يحرص عليه النبى، ويقوله فى كلم قلائل لكنها فى النهاية دستور من أرقى الدساتير الأخلاقية، ولا غرو فقد كان خلقه القرآن ﷺ (مسند الإمام أحمد).

[٨]

عـن صهيب قال: قـال رسول الله ﷺ: «عـجبا لأمـر المؤمن إن أمـره كله له خـيـر، وليس ذاك لأحـد إلا للمـؤمن: إن أصـابتـه سـراء شكر، فكان خـيـرا لـه، وإن أصـابتـه ضـراء فصبر كان خيرا له». (صحيح مسلم).

يتعـجب النبى ﷺ من أمر المؤمن، فيصدر حديثه بقوله «عـجبا» وهو مفعول مطلق لفعل محذوف، وهذا يدل على الاستغراق فى هذا التـعـجب، وكـأنـه يشد السامع لأمـر غـريب، فـيلفت نـظره لما يجئ، لغـرابة مـا يخـبـر به ﷺ، ثم يأتى مـفسرا لهذا الاسـتغراب والعـجب فيـقول: إنه من أمـر المؤمن وحـالته كلـهـا، وأمـره كله له خير، ويؤكد هذا الأمر بلفظ كله، ليستغرق حالات المؤمن كلها، ولا يؤدى لفظ «أمره» كل هذا التأكيد والاستغراق، ثم يـؤكـد ويـحـصـر ذلك بلفظ «له» والذى يدل علي الملكية والتى لا تحدث إلا للإنسان المؤمن وله وحـده، ولا يكون ذلك إلا خـيـرا ومع أن اللفظ فـيــه حصر، إلا أنه جاء بجملة أخري تؤكد هذا الحصر وتزيده تثـبيتـا، فليس ذاك أى الخـيـر لأحـد من الناس إلا المؤمن، والحـصـر هنا

بالنفى وبإلا، وهذا يساوق ما جاء تعجبا فى أول الحديث، ولابد أن يشرح هذا العجب المجمل مرة أخرى بقوله عن حالات المؤمن حين تصيبه سراء فيشكر ويكون خيرا له، وحين تصيبه ضراء فيصبر ويكون خيرا له أيضا.

ولنتأمل المشاكلة لأن الإصابة تكون عادة في الشر أو الضراء، وهنا نسميها مصيبة، وهنا نكتة لطيفة، لأن السراء أحيانا ما تصيب المرء بالبطر ونسيان الشكر، ويختال المرء عجبا وتيهاً فيظن أن ذلك من أمره وحده، وليس من تقدير الله له، فتكون حالته أسوأ، ولأن الشكر يقتضى إرادة جيدة وفاق السراء، وهنا يكون الخير جزاء عظيما ينتظره، وتنمو النعم بالشكر.

ثم جاءت الضراء وتصيب المؤمن، ويكون المتوقع الجزع والبؤس، لكن المؤمن يصبر، فيكون خيرا له أيضا، ولنتأمل كذلك قوله «سراء وضراء» وما توحيان به من مقابلة معنوية ولفظية، ثم الصيغة الصرفية الواحدة «فعلاء» والجملتان كلتاهما تكادان تكونان متساويتين حروفاً لولا الفاء الزائدة فى قوله «فصبر» لأن الإنسان جزوع بطبعه، والصبر عند الصدمة الأولى، ولذلك جاءت الفاء هذه عند قوله «فصبر» لتفيد الترتيب والتعقيب، تصيب الضراء فيعقبها الصبر فى التو واللحظة، بخلاف السراء التى لا تقتضى هذا الترتيب فيكون الشكر تاليا مع مراخاة الوقت والزمن، عادة، وحبذا

لو جاء الشكر تاليا عاقبا للسراء، لكنه صلي الله عليه وسلم يدرك جيداً طبيعة الإنسان التى تميل إلى السلامة والاسترخاء، وتجزع ولذلك حذره من الجزع فجاء بالفاء العاقبة.

وبين الحديث جزاء المؤمن فى الحالتين، وكله خير له ظافر فى كلتا الحالتين نتيجة شكره وصبره.

والصبر حبس النفس على ما تكره أو عما تحب أو هو حبسها عن الجزع، وقد قال الإمام الغزالى فى تعريف الصبر: «الصبرعبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاتلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حرب الله تعالى والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين».

كما عرف الإمام الغزالى الشكر بقوله: «استعمال نعم الله تعالى فى طاعته، مع التوقى من الاستعانة بها على معصيته».

ولصعوبة الشكر على الإنسان قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١) ،﴿ولا تجدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين﴾ (٢) ،﴿ وَإِن تَعُدُّوا نعمت اللَّه لا تُحْصُوهَا﴾ (٣)، وقال ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكوراً» حين عجب أصحابه من طول تهجده ودعائه وبكائه».

---

(١) سبأ/ ١٣.   (٢) الأعراف/١٧

(٣) إبراهيم/ ٣٤.

ولصعوبة الصبر على الإنسان أيضا وعدهم الله بحسن الجزاء: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١) ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾(٢) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣) وقـولـه ﷺ: «اللهم أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا» (مثله فى جامع الترمذى).

(١) الزمر/ ١٠.
(٢) القصص/٥٤.
(٣) النحل/ ٩٦.

[٩]

عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

(صحيح البخارى).

بدأ الحديث بنكرة وساغ لمفهوم المضاف المحذوف أى ثلاث خصال، والتعبير بقوله: كن فيه يجعل المؤمن وعاء صالحا لاحتضان هذه الخصال، لأن كان هنا تامة أى وجدن فيه كأنها جزء من تكوينه العضوى، ولم يقل وجدن فيه بهذا اللفظ لقوله فيما بعد وجد حلاوة الإيمان، ليناوح بين فعلين بمعنى واحد والتعبير بها أيضا ليدل على أن حلاوة الإيمان موجودة لا مجرد شعور طارئ بالمذاق الذى يكون ويزول، وكأن الوجود - وهو غير الذوق - أساس فى بنية المرء المؤمن، وللإيمان حلاوة يلذ بها صاحبها على الاستعارة المكنية، حيث شبه الإيمان بالعسل أو نحوه بجامع الاستلذاذ وميل القلب، ثم أثبت له لازم ذلك وهو الحلاوة بمعنى

الرغبة فى الإيمان، وانشراح الصدر له وسريانه فى أجزائه بحيث يخالط لحمه ودمه فيتلذذ بالطاعات ويتحمل المشاق فى الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا، وفى ذلك تلميح إلى قضية المريض والصحيح لأن المريض الصفراوى يجد طعم العسل مرا، والصحيح يذوق حلاوته على ما هو عليه، وكلما نقصت الصحة شيئا نقص ذوقه بقدر ذلك، وهذا يدل على قبول الإيمان للزيادة والنقص، وقال بعضهم إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة فى قوله تعالى مثل كلمة طيبة، فالكلمة هى الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهى، وزهرتها ما يهم به المؤمن من الخير، وثمرتها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر من الشجر وغاية كما له تناهى نضج الثمرة وبه تظهر ثمرتها، ومعنى هذا أن القلب الصحيح السليم من أمراض الغفلة يذوق طعم الإيمان ويتنعم به كما يذوق طعم الأشياء الحلوة ويتنعم بها.

ثم شرع يفصل هذا الإجمال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، واقتران الحب لله بالحب لرسوله مما يرشح بأن المحبتين واحدة، تمشيا مع قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله »، ومعنى ذلك اقتران طعم حلاوة الإيمان بالحب لله وللرسول، ومعنى الحب هنا التلذذ بالطاعة والتزامها والكف عن المعاصى «إن

المحب لمن يحب مطيع، والطاعة تأتى هنا من وازع الحب الذى هو فوق التكليف، لأن الحب درجة أعلى، كأن المحب هنا لا ينتظر ثوابا ولا يخشى عقابا، بل حسبه الحب الذى يشترك فيه العقل والوجدان وهو درجة من درجات المقربين الذين أخلصهم الله له، فأصبحوا من المخلصين.

ويتفرع من هذا الحب الخالص حب المؤمن لإخوته فى الإيمان وأتى هذا الخبر بصيغة الحصر لايحبه إلا لله، كأن الغاية والهدف، وقبلهما الباعث الذى يحرك مشاعر المؤمن الصحيح الإيمان هو الحب الخالص، الخالى مما سوى الله، وهى درجة تأتى بعد الدرجة الأولى السابقة مما سواهما، وسوى الله ورسوله هو الفرع الثانى من هذا الحب.

وللحب وسائل تؤثل عرشه فى النفوس منها الطاعة والتزامها واللذة الحاصلة للمحب بقربه من المحبوب خاصة إذا كان هذا الحب خالصا من شوائب المنافع وأشباهها والطاعة الواجبة والنافلة من أهم وسائل هذا الحب الذى يتربع فى قلب المحب فيصبح كالغريزة أو الطبيعة المناضلة فى النفس، فلا يزعزعه ما يعترى المرء من حالات يفقد فيها البعض صوابه كالكوارث والنوازل، بل إنه يحب هذه الحالات لأنها من محبه الذى لا يفعل له إلا كل الخير وإن خفى عليه.

والمرحلة الثالثة كراهية المؤمن للعودة فى الكفر، والتعبير بحرف الجر «فى» أدل على المراد من «إلى» المقترنة عادة بالعودة، كأن العودة فى أعماق الكفر نفسه، وهذه الكراهة لا تكون بهذه الصفة إلا مقترنة ومشبهة بكراهية أن يقذف فى النار، فالقذف فى النار بحرف الجر «فى» يقابله العودة فى الكفر، بحرف الجر نفسه.

والحديث إجمال وتفصيل، أو لف ونشر مرتب وفيه أيضاً المقابلة بين الحب والكراهية كما يزيد فى توكيد المعنى الحاصل، كما أن فيه إشارة واضحة إلى صلاح القلوب والمجتمعات الإنسانية التى تبتعد عن شرور الأثرة والحب فيها بذل وعطاء، ودواء لكل أو ضار النفس الإنسانية التى يحرص عليها الإسلام لمعتنقيه.

[١٠]

عـن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قـال: «أربع من كن فيه كـان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خـان وإذا حـدث كـذب وإذا عـاهد غـدر وإذا خاصم فجر» (صحيح البخارى).

الهدى النبوى يحتوى كل نوازع النفس الإنسانية، فالخيرة منها لها أحاديث الحب والصلة والتواد، والسيئة منها لها أحاديث النفاق، والكذب والفجور والخيانة وهذا الحديث يتحدث عن أربع خصال من خصال السوء والشر، ولا تكون بداهة فى المؤمن السليم جوانح الصدر، الوادع الأحشاء، الذى يركن إلى واحة من النبل وصفاء الضلوع فلا يثمر إلا الخير والهداية والنور الذى يسعى بين يديه، والخصال الأربع هنا كل واحدة ظلم وظلمات، وحسنا أن هذه الشرور تسد منافذ الإيمان والتواصل الحميم بين المرء وخالقه وبين المرء وإخوته فى الإنسانية التى هى فى الأصل رحم وتواد وحب وإخلاص.

وكن فيه، بكان التامة التى توحى بالنفور والتقزز كأنها أصبحت مخلوقة معه، تسعى بسعيه، وتنمو بنموه وما نموه إلا الخراب والبوار، وهذه الرذائل من شرور الأعمال لأنها نفاق يظهر فيه صاحبه غير ما يبطن أو يبطن غير ما يظهر، وهذا أشد وأنكى، لأننا لا نعرف له وجها واحداً نتعامل معه به، وتعدد الوجوه دليل على نقص شديد فى المروءة والنبل والشهامة، لأن تلك الصفات الأربع تدفع بصاحبها إلى درك أسفل من خذلان الإرادة وضعف اليقين، واجتماع الخصال الأربع بوار وخذلان وخراب لصاحبها فى أعماقه المهترئة، حيث لا يصون نعمة الله وهى الإرادة واليقين، وهذا يفسره خلوص النفاق، كان منافقا خالصا، أى لا سبيل فيه إلى التطهير والهداية، طمس الله على قلبه وبصيرته فلا يرى إلا بعين لا تكاد ترى ما حولها، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور، وحسبه أن الله عز وجل تركه لخذلان إرادته فأصبح عبدا أسيرا لهذه الشرور والآثام، والمرء الذى ابتلى بخصلة منهن كان فيه خصلة واحدة من النفاق حتى يدعها، وكأن حتى وما بعدها فيه نوع من الحث أو فتح باب الأمل ليدع هذه الخصلة السيئة ويدع بها النفاق الذى تزيا به بعض الوقت، وشرع النبى ﷺ يفصل ما أجمله فى هذا الحديث.. خيانة الأمانة، إذا اؤتمن خان، أى ائتمان بصيغة المبنى للمجهول، والمقصود أى أمانة يخونها، وجعلت الأمانة كاسمها للحفظ والأمن، والأمانة خلق لها الإنسان وحملها، (وحملها الإنسان)، والخيانة هنا يمكن أن تكون من أفعال القلوب أو الجوارح ، والخصلة الثانية والرديئة إذا حدث كذب،

والمفروض أن يكون المحدث صادقا حين يخبر، والسامع يفترض فيه الصدق، لكن المنافق مجبول على أن يضع لثاما فوق لسانه، فلا يظهر ما يخفى، فيكذب والكذب خيانة قولية، تخفى ضعفا في صاحبها لعدم قدرته على المواجهة الحقة، ولأنه يتصور أنه يدرأ بها ضررا، وهو لو درى يجلب كل الضـرر، وربما تكون كذبته وسيلة إلى خراب العامر من النفوس والبيوت والضمائر، ثم يأتى الغدر وعدم الوفاء بالعهد ، والإخلال بالمواثيق، والتهاون بالعقود، ورابعة المذام الفجور عند المخاصمة، وتجاوز حدود الأدب والشرع، والفجور أنواع باللسان البذئ، والكيد الخفى، وتعمد الإيذاء حتى ولو بالإيماء.

وجاء التعبير بإذا ليدل على تمكن العادة فى الأصناف الأربعة من النفاق، وأصحابه المنتسبين إليه، كأن هذا الفعل الذميم أصبح طبيعة مكتسبة فى صاحبه، ولا يتعللن متعلل بالكذب وما يقولونه عنه الكذب الأبيض، فهذا لا يكون إلا فى حالات مثل حالات الحرب، والصلح بين المتخاصمين، فهنا يباح مثل هذا الكذب الذى أصلح فاسدا أو جلب نفعا أو دفع ضررا بالأمة.

وجاء حذف فى الحديث ليشمل كل شيء، فخيانة أى أمانة ولو قلت خيانة، وعموم الحديث الكاذب كذب، وأى عهد وميثاق يغدر به غدر، وأى ميل عن الحق، وتجاوز عن الحد فى الخصومة فجور وظلم وجور، وكلها صفات تهوى بالمرء المسلم هويا شديدا عن معارج الإيمان والسلوك القويم الذى يليق بالمسلم الحق.

[١١]

عن عبدالله بن أبى أوفى رضى الله عنهما
أن رســـول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس، فقال: **«أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»** (صحيح البخارى).

فى هذ الحديث عود الضمير على شىء معلوم من السياق، وهذا باب من أبواب النحو الدقيقة التى يشتمل عليها هذا الحديث، كما أن فيه أيضا لونا من الحذف غير متواتر، وكأن اللغة إشارة مفهمة ومفصحة تتطلب من المتلقى أن يكون على خبر كاف بأساليب العربية البليغة، وإلا كيف نعيد الضمير فى «أيامه» إن لم يكن ثمة فضل بيان لدى المتلقى ليدرك أن الأيام هى أيام رسول الله، والأيام مجهولة المعنى كذلك لكن ما وراءها يحددها، حيث تعنى الغزوات أى أن رسـول الله ﷺ فى بعض أيامه أى عزواته التى لقى فيها، وحذف المفعول به لبيان تال معروف من السياق أى التى لقى فيها العدو، وكان الصحابى، راوى الحديث يدرك أن كلامه يصل كما

هو إلى المتلقى، وقد انتظر النبى إلى وقت زوال الشمس، ثم قام يخطب فى صحابته قائلا لهم: أيها الناس، ويشمل النداء من كانوا حاضرين هذا الجمع، كما يشمل كل من تبلغه الدعوة إلى يوم الناس والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وطلب إليهم ﷺ ألا يتمنوا لقاء العدو، لأن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، من هزيمة أو مجاهدات أو نقص فى المال والأنفس والثمرات، والحرب مشتقة المعنى من الحرب، ويؤيده قوله ﷺ وسلوا الله العافية من الحرب وأهوالها وما تجره من ويلات وكوارث تأتى على الأخضر واليابس، سلوا الله العافية من هذه المحذورات المتضخمة للقاء العدو ولا يعنى ذلك أن نفر من النزال والجهاد، لكنّ عدم تأريث نار الحرب هو المقصود والمراد.

ولا يفهم من هذا الكلام النبوى الشريف أن يستكين المرء المسلم راضيا بالخضوع والهوان، قانعا بالذلة يتجرع غصصها، مستسلما صابرا مقهورا رغم أنفه، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا عزة مع هوان وصغار خوفا من الحرب والطعان.

لذلك جاء قوله ﷺ فإذا لقيتموهم أى الأعداء وجاء الضمير بالجمع مع أن المتقدم مفرد وهو العدو، لكن المراد منه هو جنس العدو المشتمل على جملة أفراد، ولذا ساغ أن يعود عليه الضمير جمعا، وأمرنا ﷺ بالصبر عند اللقاء والصبر هو حبس النفس على

ما تكره، وحبسها عما تحب أيضا، وهي تحب السلامة ذلك الحب الذي يثني هم صاحبه عن المعالي، ويغريه بالكسل، والسلامة مطلوبة حين تصون كرامة الفرد والأمة المسلمة لكنها مرذولة شائهة حين تدنس كرامة المسلم، وتسمه بالمهانة والذلة والصغار.

ثم جاء قوله: واعلموا، وتدل على اليقين الذي يؤكده لفظ العلم، كأنه ﷺ يرى هذا رأى العين واعلموا حين تلتقون بالأعداء حين لا يكون منه بد أن الجنة تحت ظلال السيوف أى أن السبب الموصل إلى الجنة هو الضرب بالسيوف فى سبيل الله، وهو من المجاز البليغ لأن ظل الشيء لما كان ملازما له، وكان ثواب الجهاد الجنة كان ظلال السيوف المشهورة فى الجهاد تحتها الجنة أى ملازمها استحقاق ذلك، ومثله الجنة تحت أقدام الأمهات مثله فى سنن النسائي الكبرى، أو هو كناية عن الحض على مقاربة العدو، واستعمال السيوف والاجتماع حين الزحف حتى تصير السيوف تظلل المقاتلين، وقال ابن الجوزى إذا تدانى الخصمان صار كل منهما تحت ظل سيف صاحبه لحرصه على رفعه عليه، ولا يكون ذلك إلا عند التحام القتال، ودلالة ذلك أن المسلم المجاهد مأمور أن يلتحم بعدوه لا أن يولي يوم الزحف، وكأن الجنة تظللها السيوف كما تظلل الأغصان والأوراق المكان النابتة فيه.

ويفهم من الحديث أيضا أن الإسلام لا يشهر السيف الباطل مطلقا، بدلالة سؤاله المسلمين العافية من الحرب، وإنما تكون الحرب نصرة لإعلاء كلمة الله، ولا يدخلها المسلمون إلا حين يستنفدون كل وسائل السلم والتفاهم، وتكون الحرب آنذاك الضرورة الوحيدة عن السلم وكانت فتوحات الإسلام تطبيقا لهذا المعنى الإسلامى الرفيع.

[١٢]

عـن أبـى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يرى أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل» (صحيح البخارى).

فى هذا الحديث بيان واضح بالمثل المحسوس لمضاعفة ثواب الصدقات، حين تكون من كسب طيب، ومن مال حلال، حتى ولو كانت من أهون الأشياء وأدونها، لأن ما يبدو لنا تافها ضئيلا، يتضاعف لدى الله عز وجل فيكون خارجا على كينونته الأولي إلى كينونة أخرى، لا تكاد تخطر بالبال، وإلا فكيف بالتمرة وتطلق على الثمرة الواحدة تكون بتلك الصورة أعظم من الجبل، لولا أن الله عز وجل يتجلى على الشيء الهين بفضله وكرمه فيخرج عن حقيقته الأولى ليصير مثل الجبل، ولا غرو فيد الرحمن تبارك الشيء اليسير ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾.

لكن هذا التصديق مشروط بشروطه الشرعية، وتنحصر فى باب واحد هو الكسب الطيب، وهو الحلال، وما يرثه الإنسان يدخل فى هذا الكسب الطيب مادامت العين حلالا ثم يؤكد هذا المعنى، وإن كان مفهوما بالضرورة فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وقد أمر الرسل بأن يأكلوا من الطيب الحلال ﴿ يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عليمٌ ﴾ وأمر عباده بما أمر به رسله ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾.

جاء هذا التأكيد بتلك الجملة المعترضة، وهى وإن كانت فى عرف النحاة لا محل لها من الإعراب، إلا أن محلها فى إبانة المعنى وتوكيده، وإخراج ما يتوهم أنه داخل فى المراد وتنزيه الله عز وجل، محلها فى هذا كله فوق الإعراب وفوق أى محل، - ولا يقبل الله إلا الطيب - لا تقل هذه الجملة إن لم تزد على الأركان الأساسية فى الكلام، ولذا تسمى عند بعض البلاغيين حشو اللوزينج أو الحشو المبارك المقبول، لأنه يزيد المعنى، وليس فضلة فى الكلام، وقد جاءت هذه الجملة بأسلوب الحصر كأنه لا سبيل إلى أن يقبل الله غير الطيب، فالخبيث غير مقبول ، ومعدوم الوسيلة إلى الله.

يجئ بعد ذلك جواب الشرط لأسلوب الشرط فى البداية «من تصدق» مقرونا بالفاء بعدها إن المؤكدة فإن الله يتقبلها بيمينه،

وتذكر اليمين عادة لأنها فى العرف لما عز والأخرى لما هان، ولذا يكون المؤمنون فى الآخرة يتلقون كتبهم بأيمانهم، وغيرهم يتلقونها بشمالهم وفرق هائل بين الشمال واليمين، ولذا كان يمدح بعض الوزراء ليمنه وكرمه وزيادة فضله بأنه ذو اليمينين، وكأن الشمال لا وجود لها إزاء يمن يمينه، وقال بعض العلماء نسبة الأيدى إليه استعارة لحقائق أنوار علوية يظهر عنها تصرفه وبطشه بدءاً وإعادة، وتلك الأنوار متفاوتة فى روح القرب، وعلى حسب تفاوتها وسعة دوائرها تكون رتبة التخصيص، وحسبنا هنا أن ذكر اليمين تعنى سعة الفضل والبركة والكرم الإلهى، ولا يخطرن ببال أحد أن يشبه الله بأحد خلقه، فاليمين هنا لا تعنى أبداً ما ينسب من صفات تشبه صفات المخلوقين، تعالى الله وتنزه عن ذلك علوا وتنزيها عظيما.

ولا يقتصر الأمر على قبول الله الصدقة بيمينه فحسب بل إنه يربيها لصاحبها ويزيد فيها نماء وبركة، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وتبلغ هذه الزيادة مبلغا عظيما حتى تصير الثمرة مثل الجبل.

والرسول فى إطار ذلك لا يكتفى بالأسلوب المباشر بل يشبه تربية الصدقة بتربية المرء المهر وهو الفلو أو الفصيل، وسمى بذلك لأنه فلى عن أمه أى عزل عنها وصار له قوام مستقل، وفى المهر

نشاط وتوثب وحركة، وحركة النماء فيه حاصلة أمام العرب أصحاب الخيل وأصحاب تلك البيئة، وضرب ﷺ المثل بالمهر لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيما، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكأن الرسول يوضح للمتصدق أو يريد له أن يرى رأى العين كيف تنمو صدقته القليلة كما يرى نمو المهر أمام عينيه يوما بعد يوم، حتى تصير الصدقة اليسيرة مثل جبل أحد، هذا لون من التصوير الجيد للحث على الكسب الحلال أولا وعلى الإنفاق منه ثانيا، وللبعد عن الكسب الخبيث ولو أعجبتنا كثرة الخبيث «قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث».

[١٣]

عـن أبـى هـريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبـى ﷺ قـال:
«الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان» (صحيح البخارى).

جملتـان اسميتـان خبريتـان، تؤكدان حقيقة لغوية وإيمانية، أولاهمـا كـأنهـا تصـور الإيمان بشـجـرة ذات أغـصـان وأفنان، أو كالطريق ذى الشعب المتعددة، مسالكه تتفرع، ثم تؤول إلى أساسها الأول، أو كـأن الإيمان النهـر العظيم تتـفـرع منابعـه، يزودها النهـر العظيم، فيحييها، ويروى غراسها، والعدد هنا وإن كان أقرب إلى التحديد إلا أننا نميل إلى أنه لا مفهوم له، والمقصود منه الكثرة والتنوع، وكـأنه يوحى أن الإيمان غاية عليا، تحفز همم المؤمنين إلى أن يقتربوا من تلك الغاية، وأن يسددوا هدفهم نحو تلك الشعب التى ينبغى أن يتشبثوا بها ما وسعهم هذا التمسك والتشبث.

وإذا كان الإيمان بهذه المثابة - وهو قول وفعل - وشعبه بهذه الكثرة، أعلاها بلا ريب شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الحيـاء - والنص عليه وحده هنا لأهميتـه البالغة - شعبـة من الإيمان، وملحوظ أن كلمة شعبة جاءت منكرة، لأهميتها وعظمها، وكان

يمكن أن يستغنى الكلام بالضمير عن الاسم الظاهر- الإيمان - إلا أن الكلام ينقص بهذا الاستغناء نقصا واضحا، فإن تكرار الإيمان يوحى بأن الأمر عظيم، وبالغ الأهمية فجاء قوله ﷺ والحياء شعبة من الإيمان بهذا الذكر ليدل على ما رأيناه.

والنص على الحياء وحده لمكانته من الإيمان، أو يكاد هذا الملمح الأخلاقى ينحصر فيه الإيمان أو شعبته المهمة، ولم لا يكون الحياء هكذا، وهو باعث الأعمال الصالحة، والحافز عليها، وباعث الانصراف عن الأعمال الطالحة والبعد عنها، ومجرد انقباض نفس المؤمن - حياء - عن عمل المنكر إنما هو فى الوقت ذاته انتصار لقوى الخير فى نفسه، ولا غرو فالحياء مشتق من الحياة فكأن الحياة أو الحياء إن شئنا وهمامن جذر واحد اشتقاقى صنو الإيمان الذى هو حياة لنفس المؤمن، حيث يتجنب مزالق الشيطان حياء من الله، وقربى إلى الله فى الوقت ذاته حين لا يراقب المؤمن المستحى غير ربه.

والإيمان بالألف واللام هو الإيمان الكامل من صالح المعتقد وصالح الأقوال والأفعال، ولا يمكن حصره بحال، ولذا قلنا إن العدد لا مفهوم له، ليتسق هذا المفهوم مع روايات أخرى للحديث، وحسبنا أن ندرك أعلى رتب الإيمان، كما فى الحديث الآخر «أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» .(سنن ابن ماجة).

وربما فهم البعض خطأ اقتران الحياء بالخجل، فالأول شعور بالقوة يساور نفس المؤمن الذى يستحى من الله أن يأتى محارمه، ويستحى أن يكون فى موقف مذمة أو نقص حتى أمام الناس والمجتمع، فهو يربأ بنفسه أن يكون بهذا الموقف العسير غير اللائق بمؤمن صحيح الإيمان، أما الخجل وإن شابه الحياء مظهرا أحيانا، فإنه دليل نقص وإدانة، ولا يكون إلا من الضعفاء عادة، وليس المؤمن بضعيف، بل هو القوى لأنه خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» (أصله فى صحيح مسلم)، وإذا رأينا انقباضا من المؤمن أو انكسارا فينبغى أن نرجع به إلى باعثه، فإذا كان لله وفى الله فهو خلق حميد لأنه لا يتجه به إلى غير خالقه، وحسبنا كما قلنا إن الحياء من الحياة، والحياة قوة وعزة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، فالمسلم يستحى أن يستحل ما حرمه الله، فيكون حيا وحييا فى الوقت ذاته، ولعل الحديث النبوى الشريف يحدد هذا الحياء كل التحديد. قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: «إنا نستحى والحمد لله، فقال: ليس ذلك، وإنما الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء. (جامع الترمذى) وهذا أيضا من جوامع كلمه ﷺ.

[١٤]

عـن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبـى ﷺ قال: «إياكم والجلوس فى الطرقات، فقالوا ما لنا بد، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها، قالوا وما حق الطريق، قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر» (صحيح البخارى).

فى هذا الحديث حوار بين الأستاذ والمريدين، يحذر النبى، ويتساءل الصحابة، لأن مشروعية السؤال والمناقشة واحترام العقل أساس ركين من أسس الإسلام، والهدى النبوى، وعلى المناقش أن يركن فى مناقشته إلى الدليل الذى يهتدى إليه، وفيه أيضا حق السؤال وحق الإجابة ممن يعرف أكثر، وأن يدلى العارف بالتوجيه الذى يقنع من يناقش ومن يسأل وإلا صار الأمر صادراً دون فهم ودون إرادة لفهمه وما هكذا يكون احترام الفكر والعقل الذى يهدى إلى الإسلام ويهدى إليه الإسلام، إنه حرص من المربى العظيم على أن يعلم الصحابة حق المعرفة، وحق المناقشة، وحق الاقتناع.

بدأ الحديث بتحذير هو أحذركم، ولكنه أبلغ بقوله: إياكم بالضمير المتقدم على ما حذرهم منه، ولأن النهى عن شىء مألوف وهو الجلوس فى الطرقات كان التحذير بهذه الصيغة الحاسمة، وكان أيضا الإجابة الحاسمة من المستمعين: ما لنا بد، أى ما لنا غنى عنها، وجاء التعليل بعدها إنما هى مجالسنا نتحدث فيها، وأى غرابة إذن مادامت هكذا تتخذ للحديث، ولا غنى عنها، فكيف نحذر من الجلوس فيها، ولنتأمل قوله والجلوس فى الطرقات، لأن غير الجلوس مباح، حيث هى طرق نسير فيها ونمشى فى مناكبها «يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» والأسواق طرقات، لكن النهى جاء بالجلوس الذى يبدو لغير ضرورة ملحة، وحين سمع النبى ﷺ إجابة أصحابه بأنها مجالسهم للحديث، وما لهم غنى عنها، قيد هذا المباح وحدده بضوابط يلتزم بها المسلم، الصحيح، فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، والطريق هنا مؤنث بمعنى سبيل ويصح تذكيرها، وجاء قوله المجالس بصيغة اسم المكان أو المصدر الميمى الذى يدل على معنى المصدر أى الجلوس، وكأن هذا الإباء منهم يحقق لهم مصلحة أو يمثل عادة راسخة فيهم، وهنا يتجلى الهدى النبوى فى رسم الطريق لآداب الطريق، كما يتجلى الامتثال وإرادة الفهم من الصحابة حين يسارعون بالسؤال: وما حق الطريق؟ فشرع النبى يفصل هذا الحق فى هذه القضايا المهمة والآداب الرفيعة التى تكفل للمجتمع

الإسلامى السلامة وتدرأ عنه غيلة الفساد أو ما يمكن أن يؤدى إلى فساد أو خلل فى الضوابط والآداب، فبينها ﷺ فى غض البصر، ومعلوم أن غض البصر يكون عن محارم الله، فلا يملأ الإنسان عينه من شيء غيره، والغض غير الكف وهو غير متاح ولا مأمورون نحن به، لأنه فوق الطاقة الإنسانية، ولأن البصر غير المغضوض باب من أبواب الشيطان، والإسلام يدرأ المفاسد قبل أن يجلب المصالح، لأن درأ المفسدة مصلحة فى الوقت ذاته والحق الثانى كف الأذى عن الناس فلا يحتقرهم المرء المسلم ولا يغتابهم، والأذى عام يشمل أى لون من ألوان الإيذاء كالغمز واللمز والإشارات المريبة التى تحمل أى شيء من الأذى، لأنه وسيلة إلى قطع الصلات فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.ثم يجئ الحق الثالث وهو رد السلام على من يسلم من المارة، وهو رد التحية بمثلها أو بأحسن منها، لأن السلام وإفشاءه أقرب الطرق إلى قلوب الناس حتى ولو كانوا من المخاصمين أو الأعداء، فالكلمة اللينة الرقيقة باب كبير من أبواب المودة، والكلمة الطيبة صدقة، وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها.

والحق الرابع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وربما جعلناهما قسمين رابعا وخامسا، لكن العادة جرت أن يقترن الأمر بالمعروف بالنهى عن المنكر، وكلاهما من الأسس العليا لبناء الفرد

والمجتمع الإسلامى الراقى، وتقدم الأمر بالمعروف لأنه أهون وأخف محملا من النهى عن المنكر فربما كان مقترف المنكر من البشاعة والسلاطة ما لا يمكن دفعه من الفرد العادى، ومع ذلك فنحن مأمورون به.

وبيّن من سياق الحديث أن النهى للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحقوق المذكورة وفيه دلالة على أن الأولى سد الذرائع، لأنه ﷺ نهى عن الجلوس حسما للمارة، فلما قالوا مالنا بد سمح لهم بشرط أن يعطوا الطريق حقها وبين لهم ذلك بذكر المقاصد الأصلية فرجح أولا عدم الجلوس على الجلوس وإن كان فيه مصلحة لأن القاعدة تقتضى تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة. والكلام وإن جاء بالحقيقة المجردة إلا أنه فى غاية البلاغة التى تقتضى هنا كلامًا مجرداً للفهم والإفهام، وتحديد المسائل فى غاية من الإبانة والدقة.

[١٥]

عن عبد الله بن بشر قال: أتى النبى ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت على فباب نتمسك به جامع، قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله» (جامع الترمذى).

لا يهم معرفة الرجل، أو السائل، فالغرض واحد، حيث يجئ الإخبار عن السؤال الوارد، والرجل السائل حقيقة فى حيرة، وغيرة على شرائع الله، وهو يخشى.. وشرائع الإسلام كثيرة من العبادات والمعاملات والحدود ولأن المجتمع لا يزال فى أطواره الأولى، والناس حديثو عهد بالدين الجديد، وأصحاب غيرة عليه، وحرص أن يتموا كل شرائع الله، يخشى الرجل أن يفرط فى شىء، وهو يريد الباب الجامع الذى يتمسك به، ولذا قال: فباب نتمسك به جامع، إنه الخلاصة النقية التى يتمسك بها الرجل هو وغيره من قرنائه، وإلا لقال فباب أتمسك به جامع، بعد قوله: إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ، بصيغة الإفراد، وهذا من الأدب الرفيع لأنه نسب إلى نفسه الحيرة، وحين أراد الهداية والصواب جمع نفسه من أصحابه فى قوله «نتمسك به»، وهو أدب فى الكلام

والسلوك لا يكون إلا فى تلك الصفوة التى رباها محمد ﷺ فأحسن تربيتها.

وجاء قوله ﷺ لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله بصيغة الخبر، ودلالتها الإنشاء أى عليك أن تداوم على ذكر الله، بصيغة الاستمرار هذه، وصيغة المضارعة، واللسان رطب عادة، لأن فى الفم اللعاب المرطب، وكأن اللسان الذى لا يذكر الله يصيبه الجفاف حتى ولو كان رطبا عادة بالطبيعة، وتلك صورة من الصور التى تقلب المعانى العادية، والأحاسيس إلى معان مغايرة لها فى الواقع، وكأن رطوبة اللسان الفيزيائية لا قيمة لها إن لم يكن صاحب هذا اللسان فى ذكر الله تعالى، ولذا قال: من ذكر الله، ومِنْ هنا للسبب، ولبيانه، وكأنها تنفى ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، وكأن السامع حين يقال له: اللسان الرطب يعجب، لأن اللسان رطب دائما فى الأحوال العادية، فبادرته كلمة النبى ﷺ بسبب هذه الرطوبة غير العادية.

والحديث جامع أو هو الباب الجامع الذى ينبغى أن يتمسك به المؤمن، لأن فى الذكر المادة الحقيقية للعبودية، وأن النسيان يحقق لصاحبه لونا من اليبوسة والحجرية التى لا تليق بإنسان فضلا عن أن يكون المؤمن، والرطوبة فى اللسان هنا تحقق الحياة الحقة، بعيدا عن السوائم مهملات، أو الجمادات ملقيات، وإن كانت الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فالتسبيح والذكر هما المحك الذى يظهر حقيقة الإنسان الصحيحة ويبعده عن مظنة الجمادية، التى تسبح ولكن لا نفقه تسبيحها وكأن هذا الحديث مع الآية يشيران من طرف خفى إلى أن الإنسان الغافل عن ذكر الله لا يتساوى حتى مع الجمادات لأنها داخلة فى نطاق قوله وإن من شىء إلا يسبح بحمده وعدم فقهنا لا ينفى الحقيقة الإلهية فى تسبيح الجمادات.

والذكر كما هو بين فى هذا الحديث هو جوهر الشرائع الإسلامية، لأن الصلاة ذكر «وأقم الصلاة لذكرى» وبقية الشرائع إنما هى استحضار لذات الله حين يذهل الذاكر إلا عن ذاته تعالى، وهو نوع من المراقبة التى ينصلح بها حال الذاكر ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومعلوم بالضرورة أن الذكر وإن كان باللسان الرطب إلا أنه ترجمان عن القلوب، وإلا كانت كلمات تتردد لا رصيد لها من نبض شعورى يحسه المؤمن الذاكر، ويسرى فى أوصاله عبير إلهى وخمرة صوفية ترطب هذا اللسان الذى يستمد هذه الرطوبة والمائية من بستان قلبه الذى تظلله أنداء التسابيح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، كما فى الحديث الشريف.

[١٦]

عـن مـعـاذ بـن جـبـل رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، أن رسـول الله ﷺ قــال: «اتق الله حيـثمـا كنت، وأتبع السيـئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

(سنن الدارمى).

تربيـة الفـرد فـى هذا الحـديث واضـحـة تمامـا، حـيث يعى ﷺ الملكات الإنسانيـة، ويعطى كل صنف منها مـا يلائمـها، فـثـمـة درجات إنسانية، منها ما هو رفيع المقام، عظيم المستوى، ومنها ما يخـالط بعض اللمم، فـيحـتـاج إلى نوع خـاص من العلاج النبوى، وكـأن هذا الحـديث يؤكـد مـا جـاء فى حـديث آخـر من أن الدين المعـاملة (حديث الدين النصيحـة فى سنن أبى داود)، وأن الأخـلاق هى هدف الدين وأن تلك الشـرائع التى شـرعـهـا الله لعبـاده، إنما هى انتصـار رائع للطين الإنسانى الذى خلق منه البشر، حين يعلو على ذاته، وعلى الحمأ اللازب المسنون، فيسرى فى أعراقه نور، وتنبت له أجنحـة، يصعد بهـا إلى معارج إنسانية عليا، تليق بهذا المخلوق الذى وكل إليه أن يحمل الأمانة الإلهية، (وحملها الإنسان).

والحديث جمل ثلاث، بدأت بفعل أمر، لتدل على الأمر الإلهى الذى يلزم العباد أن يقوموا به، ولكن على حسب طاقاته، فجاءت الجملة الأولى «اتق الله حيثما كنت» والتقوى وقاية من المحرمات، وستار يقى النفس الإنسانية أن تنزلق إلى ما يغضب الله، والتقوى خشية أن ترتكب محارم الله، وطاعة أن تؤدى ما افترض الله، وكلها تقى المرء من الزلل، وحيثما كنت فى أى حال عليها الإنسان المتقى، أى دوام التقوى، لتكون صفة ملازمة، وهى صفة قديمة صاحبت الإنسان مع كل الأديان ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾(١) وكما يقى الإنسان نفسه من غوائل الليل والنهار والحر والبرد، فتغدو صحته حسنة من الوقاية، فإن تقوى الله أيضا تخرج من أزمات الضيق والكروب، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾(٢) ، وهى وسيلة المؤمن إلى العلم أيضا﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(٣) .

وتجئ الجملة الثانية بأمر يناسب طائفة أقل من الأولى، حيث تميل بها نوازع النفس إلى ارتكاب بعض الهنات، فعليها حينذاك أن تبادر إلى التوبة والندم حيث تتبع السيئة بالحسنة لتمحو الثانية الأولى، وكأنها لم تكن، والإتباع هنا مقصود حيث لا تراخى ولا توانى عن تلك التوبة، والإحسان، لكى تزول هذه المعصية أو

(١) النساء/١٣١. (٢) الطلاق/١٣.
(٣) البقرة/ ٢٨٥.

السيئة، وصنع التضاد هنا نوعا من المفارقة وكأنهما مادتان فى وسع الثانية أن تلتهم الأولى وأن تزيل خواصها الرديئة فى النفس التائبة، وجاء جواب الطلب تمحها، وكان يمكن الاكتفاء بقوله: «وأتبع السيئة الحسنة» لكن ينقص الكلام بدون جواب الطلب، لأن المحو هنا هو إزالة الأثر، وكأنه ملازم لفعل الأمر حيث تمحو الحسنة آثار السيئة فى الحال.

وهى تفتح الباب لدى المذنبين التائبين، ولا تسد منافذ الأمل أمامهم، وهذا من عميق رحمته تعالى بعباده، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ وكأنها أيضا ذلك الماء الذى يسيل من المتوضئ حين يزيل درن الجسم ودرن النفس، وكلها معان متواترة فى القرآن وفى الحديث يقف عليها المسلم فلا ييأس من رحمة الله.

ثم تجئ الجملة الثالثة وكأنها تتويج جيد، ونهاية حسنة للتقوى والتوبة، يتقى الإنسان ربه، ويتوب إليه عما اجترحه، ثم يلزمه فى النهاية أن تبين آثار هذه التقوى والتوبة فى سلوكه مع إخوته فى الإنسانية، لأن التقوى والتوبة تدفعانه أو ينبغى أن تدفعاه إلى التخلق بالخلق الحسن مع الناس، وجاء لفظ «خالق» بهذه الصيغة ليدل على المشاركة، والحياة الاجتماعية الراقية التى يجب على المسلم أن يحياها، وأن يمارسها سلوكا، وهو من الكمالات الإنسانية

التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان وقدوته النبى ﷺ كان خلقه القرآن، وإنك لعلى خلق عظيم، وهذا الخلق كما هو واضح من الحديث حرص من الإسلام على أن يتحلى به المسلم مع من يستحق ومن لا يستحق، لأن التعبير بلفظ الناس هنا للعموم، أى لا يخالق جيرانه أو أصحابه بخلق حسن فقط، بل يمتد تخالقه الحسن مع الناس جميعاً محسنهم ومسيئهم، وتلك تربية نبوية عليا.

[١٧]

عـن أنس بن مـالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذى له ذمة الله ورسوله، فلا تخفروا الله فى ذمته».

(صحيح البخارى).

«لنا الظاهر والله يتولى السرائر» قاعدة صالحة لبيان التعامل مع الناس، لأن هذا الحديث يقف عند الظاهر الجلى من المسلم، ولا يتعداه إلى نبش الضمائر والقلوب، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولسنا موكلين بهذا النبش، وإلا أدينا دورا غير دورنا المنوط بنا باعتبارنا بشرا، لا نتجاوز حدود البشرية التى تقف عند الظواهر، تاركة السرائر لعلام السرائر.

والمراد بهذه الشروط أو الواجبات هو حقن دم المسلم الذى ظاهره يؤدى هذه الأشياء بحقوقها، وأبرز هذه العلامات هو النطق بالشهادتين، ومسكوت عنها فى هذا الحديث، لأنها سابقة لكل هذه الشروط الواردة فى الحديث، وإلا كانت هذه الواجبات عبثا حين لا ينطق صاحبها بالشهادتين وقد وضحت فى أحاديث أخرى ومفهوم

معنى الصلاة، لأنه يخاطب ﷺ أناسا تدرك مرامى كلامه، وحسبه أنه أضاف الصلاة إلى نا المتكلمين، أى صلاة المسلمين التى هى صلاتنا، فلا تؤخذ بالمعنى اللغوى القديم، وهو مجرد الدعاء، بل تؤخذ بالمعنى الاصطلاحى الإسلامى وهو أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة.

ومع أن استقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة فإن الذكر هنا لبيان الأهمية، من قبيل عطف الخاص على العام، لأن الصلاة لا تصح إلا باستقبال القبلة، وكأنى به ﷺ يوجه من طرف خفى إلى أن استدبار القبلة إنما هو نوع من الخروج على إجماع المسلمين بأحقية القبلة فى استقبالها، ونوع عن التمرد على الأمر الإلهى، وضرب من الخروج على الرضا النبوى فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وكأن الجملة أيضا تشير إلى ما كان من لغط حول تغيير القبلة وهو فى النهاية نوع من التوجه الإسلامى إلى وجهة واحدة، الخروج عنها تمرد وشق لعصا الطاعة.

ومن شواهد الإسلام أكل الذبيحة الإسلامية، وترك ما حرمه الله من الخنزير والدم والميتة إلى آخر هذه المحرمات، وهذا الجزء من الحديث بالذات إنما هو إشارة إلى الإقرار بحل هذه الذبائح، ولا يشترط الطعام منها، فبعض الناس لا يستطيبون طعم الحيوان المذبوح مثلا، كالنباتيين، فكأن هذه الجملة تبين فقط عادة

إنسانية، لا تجبر المسلم أن يأكل، لكن عليه فقط أن يقر بحل هذه الذبيحة.

إذا استقامت للمرء المسلم هذه الأمور الثلاثة من الصلاة واستقبال القبلة وأكل الذبيحة وكلها كما نرى مضافة إلى المتكلمين، وهى تدل على الخصوصية والملكية، هذه الأمور إذا استقامت للمرء المسلم كان هو المسلم بالألف واللام «فذلك المسلم» فى أى مكان، كما تدل لام البعد للمكان والمكانة أى بالمسلم الرفيع الكامل بأل التعريفية، وجاء وصفه الذى يؤكد حرمته دمه وماله وعرضه «الذى له ذمة الله ورسوله» أى له أمانه وعهده، وأمان رسول الله وعهده، وإذا كان المسلم بهذه المثابة من الحرمة والرعاية والحق فإن الذى يتعدى هذه الحدود إنما لا يتعداها بالسيئة لأخيه المسلم فقط، بل إنه يخون ذمة الله وعهده لأن الله هو الذى خلقه وأعطاه العهد والأمان لأنه مسلم فلا يجب أن نخالف ما شرعه الله من حماية المسلم الذى تحققت فيه هذه الأمور الإسلامية.

وتأمل قوله ﷺ الذى له ذمة الله ورسوله وتقدم الجار والمجرور «له» لإشعارنا بأهمية المرء المسلم وحقوقه، وحريته التى منحها الله له، فلا يجب أن ينتزعها منه أخوه، ولعل هذه الأشياء، الظاهرة من صلاة واستقبال قبلة وأكل ذبيحة تجعلنا ننفر من التفسير أو التأويل الباطنى، ولبعض الأمور الفقهية، خاصة بعد هذا التحذير النبوى والإلهى، وصيانة دم المسلم وماله وعرضه.

[١٨]

عــن أبى هريرة رضي الله عنه أن رســول ﷺ قــال: **«يتـعـاقـبـون فـيكم مـلائكة بـالليل ومـلائكة بالنهـار، ويجتمعون فى صلاه الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوافيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادى فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»**

(صحيح البخارى).

صـيـغـة من الصـيـغ النوادر فـى الكلام العـربى القـديم، ولا تزال جارية على ألسنة بعض الناس حتى الآن، وتسمى لغه «يتعاقبون» وتكثر فى لغة طىء، ولذا نقف عليها فى شعر أبى تمام لا لضرورة الشعر، لأن الكلام بدونها يستقيم، بل لأنهـا خصيصة لغوية، وكأنها لتأكيد وجود الفاعل وإن كان بعض النحاة يرى أن واو الجماعة فى الفعل إنما هى علامة للجمع وليست فاعلا وإن كنا نرى أنها صيغة خاصة جامعة بين واو الجماعة والفاعل.

وجـاء قـوله ﷺ مـلائكة بالتنكير لتدل على أن هـذه طائفة من الملائكة تعقبها طائفة أخرى منكرة أيضًا فملائكة الليل إذن غير

ملائكة النهار، ولكل وظيفة واختصاص، أو لكل وقت وأوان فى التعاقب، وجاءت صيغة يتفاعل، لتدل على المشاركة والتواصل فى النزول وواو الجماعة فيها يشى بكثرة التعاقب وكثرة الملائكة النازلين، وفيكم أى جماعة المصلين منكم بدلالة ذكر الوقت بعده فى صلاة الفجر والعصر، وخصهما بالذكر لأن الأول ربما يغلب الكسل ولذة النوم فلا يكون نهوض من صاحبها، وكذلك العصر أوان العمل أو اللهو فينشغل المرء عن الصلاة، ويأتى وقت عروج الذين يبيتون فى الصلاه فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم، حيث لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وهى جملة اعتراضية تثبت علم الله وإحاطته، والسؤال الإلهى للملائكة ليس لمجرد العلم فهو سبحانه عالم به بدءا، لكن ليباهى الملائكة بعباده، ولكى يجرى الثناء من ملائكته على المصلين من عباده، واكتفى بعروج طائفة من الملائكة حال الليل لأن الليل مظنة الكسل والنوم أو مزاولة الشهوات، ولكن المصلين راعوا حق الله، فلم يلبسوا صلاتهم بكسل أو شهوة بل هم قائمون الليل، يعبدونه تضرعا وخفية، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا، وجاءت الإجابة وهو سبحانه أعلم بها: تركناهم وهم يصلون، والجملة حال كأنها حال ملازمة حال الترك، وجاء الترتيب هكذا لأن السؤال جاء كيف تركتم عبادي؟، وكان يمكن الاكتفاء بجزءالإجابة الأول عن السؤال محدداً، لكن الثناء من الملائكة أجاب عن شيء آخر، وأتيناهم وهم يصلون فهى حال لازمتهم حين النزول حتى الهبوط.

لعل فى هذا الحديث إشارة واضحة إلى مكانة الصلاة فى الإسلام وكيف أنها صلة بين العبد وربه ولعل أهميتها تكمن فى أن الله أراد لها أن تقترن بنزول الملائكة زيادة فى الاهتمام بها، أو أنها إشارة إلى أن المصلين يقترنون بالملائكة لطافة أجرام ورهافة حواس، أو أنها الأجنحة التى تنبت نورانية فى أعصاب الطين الإنسانى، فتحيله إلى لطافة وشفافية تقترن بها الملائكة، أو كأنها صلة حميمة بين المصلى وبين ربه، فيباهى الله ملائكته بعباده المصلين ، لأن هؤلاء الملائكة قد تساءلوا فى بداية الخليقة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وكأن هذا درس عملى للملائكة حين ترى قمع المسلم المصلى لشهوات النفس والبدن، وإذلاله وتسخيره لتكون فى خدمة النور الإلهى الذى يسعى فيه المؤمن بين يديه، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وكأن هذا الصعود الملائكى إيذان بأن الأعمال الصالحة كالصلاة في هذا الحديث إنما تصعد إلى الخالق فى هذا الموكب الملائكى المهيب، وخاصة أن الصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت فى السماء، وكأنها منها نشأت وإليها تصعد، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

وكأن هذا التعاقب الملائكى يناسب تعاقب الصلوات الخمس فجاء الفعل من نفس العمل، حيث تتعاقب الملائكة في المصلين، وتتعاقب الصلوات منهم عارجة إلى الله عز وجل.

[١٩]

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»

(قال السيوطى فى الخصائص الكبرى ١/٣٧ [طبع دار القلم - بيروت] أخرج أبو نعيم من طرفه عن ابن عباس وذكره).

ليس هذا نوعا من الغرور الممجوج، ولا من الفخر والتباهى الردىء، بل هو نوع من إقرار الحق، ووضعه فى نصابه الصحيح، ووصف لنسبه - ﷺ فى أمه تقيم للأنساب وزنا هائلا، لدرجة أنها الأمة الوحيدة التى أصبح للأنساب فيها علم مستقل تعرف ضوابطه وحدوده، حتى جعلوا للخيل نسبا وهو أيضا بيان لطهارة هذا النسب ونقاوته مما شاب أنساب الجاهلين من سفاح، وكما قال ابن الكلبى: كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم فما وجدت منهن سفاحا، ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية، وفى هذا دليل واضح على أن الله عز وجل خلقه على عينه، وادخره مصفى مهذبا لحمل أمانته

العظيمة، كما أنه يبين أن نقاء النسب من الأمور المهمة التى يحرص عليها فى اختيار النبوة، حيث لا يلحق صاحبها ما يشينه، وما ينقص من قدره فى أمته أو فى غيرها.

والحديث يبين تلك الرحلة الطويلة التى يدل عليها قوله «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة» ودلالة هذا الفعل الذى يدل على الاستمرار وأن سلسلة الانتقال لا تزال مستمرة من الأصلاب التى طهرت عن الخبائث وعما يشين وينقص القدر، لأن سلامة الأصلاب دليل منعة وقوة، حيث إن العرق دساس، وتلك الأرحام الطاهرة التى صانها الله أن تخبث، فطهرت وتطهرت، وطهر ما تحتويه من الأجنة، وهذا الانتقال المستمر صحبه تصفية وتهذيب، مصفى مهذبا، خاليا من شوائب الأصلاب الخبيثة والأرحام الرديئة، وحين تتشعب القبائل والأفخاذ إلى شعب وأقلها شعبتان إلا كان ﷺ فى خير هاتين الشعبتين. الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ولعل البوصيرى كان يلمح إلى شيء من هذا حين قال:

لم تزل فى ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

والله أعلم حيث يجعل رسالته، وربك يخلق ما يشاء ويختار، والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير، وقد قرأ النبى ﷺ هذه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. بفتح الفاء، وقال: أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا».

وما قاله ﷺ نظرا، نراه تطبيقا فى صفاته الخلقية وفى حياته العملية، فقد صانه الله عز وجل من هجنة السفاح، وطهره تطهيراً، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فهو رجل مستقيم الخلقة، مستقيم النسب، شريف النجار، ولد لأبوين كريمين، لم ير أباه، وماتت أمه وهو طفل صغير، ومن شأن هذه الأحداث أن تكسب صاحبها بعض الهزات النفسية، لكن حياته كانت على أوفاها وأتمها من الاتزان ورجاحة النفس والعقل، وإلا لما صلح لحمل هذه الأمانة العليا، وهذا من إعجازه البليغ ﷺ أن يخبر عن نفسه بمثل هذا الحديث ثم نجد مصداقه فى حياته سلوكا وعملا وعلما، وكأنما أراد الله أن يصنعه على عينه هو لا عين آبائه وأجداده، فكفله وآواه يتيما، وكان ﷺ من السلامة البدنية والنفسية ما يحمل به أمانة السماء، حتى تلك النكبات النكباء لم تزلزل هذا البنيان الجسدى والنفسى الوثيق، بل زادته إيمانا ويقينا، بما نذره الله له. «أدبني ربى فأحسن تأديبى».

وحسه العالى بصراحة النسب وراء هذا الكلام الرفيع الذى بين فيه تصفيته وتهذيبه، ووراء فقهه لما يسمى الآن بعلم الوراثة، تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس، «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار».

[٢٠]

عن أبى مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك، فإنى لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» (سنن ابن ماجة).

يرسم هذا الحديث صورة نفسية رفيعة لرجل عبقرى، قبل أن يكون نبيًا، فما بالنا وقد حاز الشرف من جميع أطرافه، إنه ﷺ يدرك مهابته فى قلوب الناس، ويدرك أن هذه المهابة لا بد أن تكون مأنوسة، يألف الناس الحديث إلى صاحبها، والتعاطف معه، وإلا تحاشاه الناس، إنها الرقة الإنسانية فى أعلى مجاليها، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

كما يدرك أن مولده ليس معجزة، وأن أمه ليست من طينة أخرى غير طينة البشرية، إنما حسبه أنها حملت به، وأنه رسول رب العالمين، ومع هذه الرساله فهو بشر مثلنا، لكن يوحى إليه، ويوحى إليه هذه هى التى جعلت من الطين البشرى نورا سماويا

وهو نور النبوة لا يرضيه ﷺ أن تبرأ أمه من هذه البشرية، التى شرفتها هذه الأم به هو، ولا يرضيه أن يضاف إلى هذه الأم ما يشذ بها عن سنة الله وفطرته التى فطر الناس عليها، أو أن تكون شخصيتها بما يجعل ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق، ولا غذته وراثة، ولا أثرت فيه بيئة..

لقد ولد ﷺ يتيما فشرف اليتم ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾.

هذا اليتيم ومن يكن كمحمد فاليتم يعليه على نظرائه

وهذا اليتيم له مهابته المحبوبة من قلوب ذويه ويدرك ﷺ أن مقامه يمكن أن يجعل بعض جلسائه ترعد فرائصه، وكأن من أمامه يتصور أنه أمام ملك أو خاقان، يرعب ويرهب، وارتعاد المفاصل يبين أثره فى الكلام فيخرج متقطعا، لاهث الأنفاس، مبتور الحواشى، وهذا من شأنه ألا يجعل الجالس إليه ﷺ يعى ما يقوله أو تعجز الرسالة أن تصل إلى المتلقى، ومحمد ﷺ صاحب الرسالة يعنيه أن يبلغها، وبلاغها يقتضى سكونا خاشعا وفهما دقيقا، يحول دونه ارتعاد الفرائص.

والحديث يصور حكاية محبوكة الأطراف، فالرجل - منكراً - أتى إلى النبى وتحدث إليه، وفرائصه ترتعد، خوفا،ومهابة، وأسند إليها «جعل» الفعل المساعد الذى يدل على استمرار الحالة، وكأنها ملازمة لصاحبها، لا تجىء إليه إلا لتستمر، فما كان من صاحب

الرسالة، صاحب القلب العظيم إلا أن يهون الأمر على الرجل، قائلا له هون عليك، رفقا بنفسك، فإنى لست بملك، وهذا علة لتهوين الأمر على الرجل، لأن من عادة الملوك ـ وحاشا أن يكون الرسول منهم ـ أن يبثوا ولو بالسيف والباطل ـ الرعدة فى الفرائص وكأنهم لا يحكمون الرعية إلا بهذه الوسيلة التى يبرأ منها مقام النبوة، لانه مقام رحمة، ودرج عالٍ من الإنسانية الرفيعة، ولذا جاء التأكيد بقوله فإنى، وقوله بملك، بباء الجر الزائدة التى تنفى الفعل نفيًا حاسما لا مثنوية فيه، وكان يمكن أن يقال: هون عليك فأنا لست ملكا، لكن الكلام هذا لا يكون مؤديا دوره البلاغى الرائع.

ثم جاء الخبر الآخر ليزيد الأمر بيانا، وليبث فى نفس جليسه الثقة الزائدة والاقتراب الحميم من صاحب النبوة، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد، إنه كلام النبى الذى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، كلام يجذب إليه نوافر الأفئدة ويلين ما اخشوشن منها، ويهدهد ما ارتعد منها، وجاء الكلام بأسلوب الحصر إنما مؤكداً ونافيا أى معنى آخر يرد على الخاطر، وجاء قوله ابن امرأة منكرة، وهى فى غاية المعرفة، إنها آمنة بنت وهب الشامخة حسبا ونسبا، وحسبها أنها أم محمد، من ذؤابة قريش، ولم يقل ﷺ ابن رجل من قريش لأن المرأة أقرب إلى العطف والرحمة، وأقرب

إلى أن يكون ابنها عاطفا رحيما، وصفة هذه المرأة أنها من قريش، وتأكل القديد، ولم يقل كانت تأكل، وكأنه ﷺ يستحضر هذه الصورة، مع أنها توفيت من قديم، وكأن الخيط أو الحبل السري متصل بين هذه الأم العظيمة التى تأكل اللحم المقدد المملوح وبين ابنها العظيم الذى شرف الإنسانية، وشرفت الإنسانية بتلك الأم العظيمة، ونعتقد أن الرجل قرت نفسه، وهدأت جوانحه، وأصبح وثير مهاد النفس بعد هذه الكلمات الرقائق على صاحبها أزكى السلام.

[٢١]

عـن ابن عمـر رضى الله عنهمـا قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «مـثل المنافق كمـثل الشـاة العـائرة بين الغنمين، تعـيـر إلى هذه مـرة، وإلى هذه مـرة» (صحيح مسلم)، **«لا تدرى أهـذه تتبع أم هذه»**. (وبهذه الزيادة فى سنن النسائى).

يكثـر فى حـديث النبى ﷺ ضـرب المثل، والتشبيه، لأنه معلم، والمعلم فى حـاجة إلى مثل هذه الوسائل البيانية لشرح مقاصده، ولترسيخها فى أذهان المتلقين عنه.

وفى هذا الحديث ضرب المثل وشبه جنسا من الناس، تختلف بواطنهم عن ظواهرهم، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهو المنافق، الحائر أيكون مع المؤمنين أم مع الكافرين، وهو هكذا مشتت الولاء يشعر بانفصام الشخصية، لا يستقر على حال من القلق مثله مثل الشاة الحائرة بين قطيعين، فهى مرة تميل إلى هذا، وأخرى إلى ذاك، وبسبب هذه الحيرة لابد أن يأكلها الذئب. والذئب بالنسبة للمنافق، هو المشاعر المضطربة الحائرة التى تلتهم سكينته واطمئنانه، فيعيش موزع الولاء والشخصية، وحسبه بهذا عذابا واصبا، لأن الإيمان سكينة وأمان ويجعل صاحبه وادع الأحشاء،

غير زئبقى الأحاسيس والمشاعر، بل راسخ اليقين ومن ثم تكون ثمرة المؤمنين الذين يركنون إلى هذا البناء الشامخ، فيزيدهم عزة وأمنا ويقينا.

وقد بين الحديث جوانب الصورة فى هذا التشبيه لأنه لم يتوقف عند أية شاة، لأن من الشياه ما يكون مستقرا آمنا فى سربه مع القطيع، بل جعلها شاة عائرة بين غنمين، واستوفى جوانب التصوير كذلك من الحركة التى ترسم المنظر كأن المستمع يراه، فهى تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدرى أين مستقرها.

والمنافق خرب الباطن مزلزل العقيدة، زائغ الوجه إذا كان له وجه واحد، يعتريه هذا الضعف الذى يجعله يلبس تلك الأقنعة، ويضع تلك المساحيق الزائفة على وجوهه المتعددة، فيضيع قوامه، ووجهه الخاص وما هكذا تكون الإرادة القوية التى ينبغى أن تكون صفة المؤمنين، فالنفاق جبن وضعف واستخذاء وعدم قدرة على المواجهة الحقة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

لقد حرر الإسلام عقيدة الناس من الضعف والجبن ومن الذلة إلا لله وحده، وسما بالمسلم أن يكون مرائيا، بل جعله يتجه بالعبادة والنية الخالصة لله وحده، وما هكذا شأن المنافقين الذين تكون عيونهم مصوبة نحو رضا الناس على حساب رضا الخالق، وقد بين القرآن أن قبول الإسلام لا يكون إلا عن رضا واقتناع، ورفض الإكراه فى الدين، فلماذا يكون المسلم مكرها نفسه على عبادة غير الله، عليه أن يتحرر من ذل النفاق وأن يلوذ ببرد اليقين، وعز الإيمان، وأن يخلص لله وحده فى السر والعلن.

[٢٢]

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل، أو يفيق» (سنن أبى داود).

تدور فى كتب الشريعة مثل هذه الشروط التى هى مناط التكليف، وهى البلوغ والعقل، وكلها تؤكد أن المرء لا يحاسب إلا إذا كان مؤهلاً لهذا التكليف الذى شرعه الله عز وجل، فكيف نحاسب النائم على ما يصنع أو يحلم فى نومه، وكذلك الصغير أو ما نسميه الآن الحدث الذى لم يبلغ الحلم، فضلا عن المجنون الذى فقد أهليته؟

كل هذا مشروط بوقت النوم والصغر، والجنون، وحتى تنتهى هذه الحالة باليقظة، والكبر، والإفاقة والعقل يبدأ التكليف والمحاسبة.

وملحوظ أن عدم التكليف مراعى فيه عدم تحقق الإرادة فى هذه الأصناف من الناس، وكيف يحاسب الإسلام من لا عقل له، وهو دين الفكر والعقل.

وملحـوظ أيضـا أن السكران لا يدخل فى تلك الطوائف، لأنه اقترف إثما، فهو غير المجنون الذى غلبه جنونه، وابتلاه الله بفقد حصاته فلا يملك من أمر نفسه شيئاً.

لقد كرم الله العقل، وجعله المعول الأول فى التكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ ، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

وقد وجه الله عز وجل نداءه للبالغين الذين يعقلون لأن القلم مرفوع عن الصغار، رافعا عنهم الحرج، لأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها. وليس فى وسع الصغار هذا التكليف، وقد صنع الله ذلك فى كل أمور الشرع حين تكون ثمة مشقة، أما الصغار فقد نبه ﷺ أنهم يؤمرون بالصلاة لسبع [مسند أحمد]، وهو نوع من التدريب على أداء الفرائض، لا تكليف عليهم، وهو أيضًا شىء من التربية الخاصة بالنشء حتى تكون عادة راسخة لديهم.

وحين يبلغ الأطفال الحلم فقد أمرهم الله بما أمر به الكبار ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وفى الحديث تحذير للقادرين ولا يؤدون التكاليف الشرعية، وإلا كانوا - مجازا - داخلين فى إطار هؤلاء الأصناف الثلاثة، لأنهم

يكونون غافلين نائمين عن الفرض، صغارا فى فكرهم وسلوكهم، أو مجانين غير مفيقين، وهو أشد السوآت بالنسبة لإنسان يحترم عقله ودينه.

ورفع القلم كما فى الحديث، رفع للتكاليف والمحاسبة عليها، وكأن القلم واقع يخط ما يقترفه المسلم من خير وشر، وكأن رفعه رفع للحرج، والإصر الذى يشعر به المسلم، وليس معنى ذلك أن ينام المسلم عن أداء ما افترضه الله غافلا عنه، وإلا دخل فى دائرة الإثم لأنه فى هذه الحالة لا يكون نائما بل متناوما.

[٢٣]

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«قالت الملائكة: يارب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه: فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراى»

(صحيح مسلم).

هذا الحديث يعرض لبعض الحالات النفسية التى تعترى المرء، ومن أعرف بالإنسان من خالقه؟ وهو أبصر به، وهى جملة اعتراضية، إلا أنها استدراك يخرج ما يتوهم أنه داخل فى المراد، ولذلك لا تقل أهميتها عن أهمية صلب النص.

هذه الوسوسة التى تصيب الإنسان، والكرام الكاتبون يعلمون ما يفعل، يتدسس إليها الحديث، وهى لم تخرج بعد إلى حيز التنفيذ، وكأنها إيضا نوع من التربية الإلهية لخلق الإنسان وإرادته، وأن الإنسان يحاسب على ما يقدم عليه منفذا له.

والحديث كما هو واضح من الأحاديث القدسية التى نص العلماء على أن لفظه من عند الرسول ومعناه من الله عز وجل، وهنا الفرق

بينه وبين القرآن الكريم، كما أن هذا التحديد يوضح الدور النبوى، ويبرز صنع الرسول الكريم.

وهذا الحديث يقرر الجزاء، فإن نفذ العبد السيئة تكتب له بسيئة واحدة، لكنه فى الوقت ذاته يحاول أن يقوى إرادة المسلم، ويشجعه على عمل الطاعة، ولذا فمجرد تركه للمعصية يثيبه الله عليه، فتكتب له حسنة، ولا يترك هكذا لا عليه ولا له، لكن بشرط أن يكون هذا الامتناع عن السيئة خشية من الله وحده، لا أن يعوقه عائق، أو عدم قدرة على الفعل السيء، وهنا فائدة ذكر «إنما تركها من جراى» ودلالة أسلوب الحصر الذى يقصر الترك على القصد بسبب الخشية من الله، والورع عن الوقوع فى محارمه، وهذا أيضا نوع من الحوم حول الحمى، لكن الإرادة تكسب الجولة كما يقولون فتنتصر فى النهاية وانخذل حزب الشيطان، وخذلان الإرادة.

وفى الحديث تصوير داخلى لحركة الوسوسة دون أن تكون به وسائل الصورة البلاغية المعروفة، لأن الحقيقة المجردة أيضا تصنع صنيع تلك الوسائل، وربما تفوقها، وحسبنا أن نتخيل انهزام حزب الشيطان داخل النفس، وانتصار قوى الخير فى النفس، إيمانا بربوبيته سبحانه وتعالى، الذى هو أبصر بالإنسان عبده، من كل خلقه، حتى الكرام الكاتبين.

والحديث يلج إلى كهف عميق فى الغريزة الإنسانية وكيف أنها تستولى على صاحبها، فتسول له عمل السوء، لكن الحديث يرسم أيضًا طريقة النصر على تلك الغريزة اللجوج، وهو أن الترك للمعاصى يكون اتقاء للخالق عز وجل وخشية له.

[٢٤]

عـن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «إن الحـلال بين، وإن الحـرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشـبـهـات وقع فى الحـرام، كـالراعى يرعى حـول الحمى يوشك أن يرتع فيـه، ألا وإن لكل ملك حمـى، ألا وإن حمى الله محـارمـه، ألا وإن فى الجسد مضـغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» (صحيح البخارى).

لعل معرفة الحلال والحرام من الأمور التى تهتدى إليها الفطر السليمة، فالحلال ظاهر لا خفاء فيه، وكذلك الحرام واضح ظاهر لا يخفى أمورهما على جمهرة المسلمين.

أما المشتبهات فقائمة على ما يجد فى حياتنا، إذ نواجه أحداثا ومشكلات لا تبين للفرد العادى، بل يتطلب الأمر بها أن يقف عندها العلماء، والراسخون فى العلم، حيث إن الدين لم يبين كل

جزئية، مكتفيا بالأسس العامة وهذا شأن الدين القويم الذى لا يسد على الناس منافذ الفهم والاجتهاد، وإلا كان معتنقوه نسخا شائهة مكررة، يلغون عقولهم، كيف، والإسلام دين يهدى إلى الفكر، ويهدى الفكر إليه؟ ومن ثم كان اختلاف العلماء، فعند أبى حنيفة مثلا أن الحلال ما ورد عن الشارع دليل بحله، وعند الشافعى ما لم يرد دليل بحرمته. ورأى أبى حنيفة أميل إلى الاحتياط، والشافعى أميل إلى التيسير، وربما كان رأى الشافعى أقرب إلى الفطرة وإلى مقاصد الشريعة، تحقيقا لقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، وقوله ﷺ: لن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه.

والمشتبهات هى الأمور التى لم يتضح حلها ولا حرمتها ولا يعرفها كثير من الناس، وفيه إشارة إلى فضل من يعرفها وهم قلة من العلماء فى كل جيل، والقلة دائما مناط المدح والثناء، لأن أكثرهم لا يعلمون، كما ذكر فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم.

والمشتبهات لم يرد فيها نص بحل وحرمة، واشتق منها فى الحديث «الشبهات» التى يتقيها المسلم براءة لدينه لأنها تقوده إلى الوقوع فى الحرام، وما يقود إلى الحرام يقرب أن يكون حراما، لأن الإنسان لا يأمن مواقع الزيغ فى نفسه، ولا يدرك مسارب الشيطان الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم.

وهذا يدخل فى باب سد الذرائع فى الفقه الإسلامى، لا يلغى الإسلام الفطرة الإنسانية، لكنه يهذبها، ويصقلها، ويضع حولها سياجا من الأمان النفسى، والورع الذى يحمى المسلم أن يقع فى المحظور، بأن يبتعد عما يمكن أن يجره إليه، وأن يتقى الشبهات فيبرأ لدينه وعرضه.

ثم شبه الرسول هذا الموقف بموقف الراعى حول الحمى، متصورا أنه كلأ مباح فيقع فى المحظور منه معرضا نفسه للعقوبة، ويكمل النبى ضرب المثل، بأن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، وهذه هى الحماية الأولى للحمى، تصد الجنود والأسوار كل من تسول له نفسه باقتحام الحمى، والاقتراب منه، وتلك هى الحماية الخارجية وما يستتبعها من عقوبات رادعة.

ثم تلى الحماية الثانية وهى الداخلية أو القلبية، وهى القلب الصالح، أو الإرادة القوية، أو الورع ودوره فى تهذيب الجسد التابع له، وإذا ناله عطب فسد الجسد كله، لأنه تابع كذلك.

وكأن الرسول يربى هذه الأمة، مدركا الوسائل التربوية، فثمة من تهن إرادته، فيحتاج إلى تهذيب ومن قويت إرادته، فلا يرتكب حراما، ولا يحوم حوله، وهكذا يكون المسلم الحق مستبرئا لدينه وعرضه.

[٢٥]

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر، فزع إلى الصلاة» (سنن أبي داود).

ورد ذكر الصلاة فى القرآن الكريم نحو مئة مرة، كما تردد الحث عليها والاستعداد لها من طهارة الثوب والبدن والمكان فى حديث النبى عليه السلام، وفى أعماله ولعل قوله «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» [سنن النسائى] ما يهيىء للصلاة مكانتها المثلى فى نفس النبى ﷺ.

ومعلوم أن الصلاة من أركان الإسلام الخمسة، وجاءت فى الحديث الشريف بعد الشهادتين تأكيداً لأهميتها، وبيانا لمكانتها فى الإسلام، وكيف أنها عماد الدين [صحيح البخارى].

لكن الصلاة يراد منها الأداء حين تذكر ويراد بالأداء استيفاء شروطها، والعلو بها عن شواغل الحياة وضواغط الدنيا، «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» كما جاء فى حديث آخر.

والمسلم يستعين بالصلاة على الأزمات والمصاعب الحياتية

والنفسية، وقرنها القرآن الكريم بالصبر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

ومفزع المرء وملاذه الصلاة، لأنها علو واتصال بالخالق عز وجل، وارتفاع عن الدنيا وصغائرها وامتزاج ومناجاة بالملأ الأعلى، وقرب ودعاء لخالق الإنسان حين تضيق به الدنيا، وطمأنينة وأمن وثقة، وتطهر روحى من أدران الحياة ومصاعبها، وكيف لا وهى قرة عين النبى، والعين القريرة أى الباردة وليست الساخنة لأن سخونة العين تأتى من الأحزان والكوارث والبرودة تكون دلالة على الجذل النفسى والسرور واليقين.

وتعبيره عليه السلام حزبه أمر، أى ضاق به الأمر واشتد، وأخذ بأكظامه، و لا يكون الملجأ إلا إلى الصلاة، حين تختنق أواصر العبد بقيود العباد والمادة، يكون المفزع الحقيقى إلى الله من خلال الصلاة والدعاء، والتجرد من كل ملابسات الحياة العادية، والدخول فى ملابسة عليا، والاستغراق والذهول عن الدنايا والصغائر.

وحسب المسلم أن يفزع إلى الله خمس مرات كل يوم وما أكثر ما تحزبه أمور الدنيا، فإذا به يتجرد من أدناس الحياة، ليعرج فى مناجاته الضارعة الخاشعة، منتهيا من الفحشاء والمنكر، وحسبه أن

يعلم أيضا أن أحد الصالحين رأى الأطباء أن تبتر ساقه، فإذا به يأمرهم ببترها وهو فى صلاته، لأنه لا يحس هذا البتر وهو مستغرق، يناجى ربه، الذى خفف عنه ألم القطع، دون تخدير، غير هذا اليقين والطمأنينة التى شعر بها فى مناجاته مع خالقه عز وجل، وحسن أن يفزع إلى الصلاة لأن الفزع إليها يصور ركونه وإسراعه إلى تلك العلاقة الحميمة بينه وبين الله.

[٢٦]

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ـ مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه، ثم يقول أنا مالك ،أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

(صحيح البخارى).

يوضح الحديث الشريف ما ينتظر مانعى الزكاة، من هول وعذاب يوم القيامة، يرسم صورة فظيعة، يقفّ لها شعر الإنسان، حتى ولو لم يكن مسلما، لأنها صورة أدبية مخيفة، ينقلب المال المكنوز فيها إلى ثعبان أقرع ـ زيادة فى الرهبة والتنفير ـ تساقط جلده من الكبر، له زبيبتان، يأخذ بشدقى الكانز ماله، والثعبان ينطق قائلا له أنا مالك، أنا كنزك، وهو يلتهمه، يطوق عنقه، وربما تشير أحاديث أخرى إلى أنواع من الجزاءات التى تناسب المال المكنوز، فصاحب الأنعام تدوسه أظلافها، وتنطحه قرونها، وحتى

لو كانت الصورة رمزا لنوع من العذاب، فهى صورة منفرة وبائسة، ولماذا نذهب إلى الرمز، ولا نكون على الحقيقة العارية التى تبين هذا الهول المنتظر.

والحديث الشريف بيان لبعض الصور التى وردت فى القرآن الكريم، ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، لأن الجزاء من جنس العمل.

والزكاة ركن هام من أركان الإسلام، وفيها مشقة أكثر من الصلاة، فالإنسان يتطهر فى الصلاة، ولا يخرج شيئًا من المال، والزكاة اختبار حقيقى لمدى سخاء النفس، وكثرة الحديث عنها فيه دلالة على أن كثيرا من النفوس لا تسخو، ولا تعطى حقًا واجبا فى المال الذى تحرزه.

فضلا عن أن الزكاة طهرة لهذا المال على حب الإنسان له ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

فالشارع الحكيم يدرك الطبيعة الإنسانية، وكيف انها تحتجن

الخير لنفسها، فهذب هذه الطبيعة، بما افترضه عليها من صلاة وزكاة وصيام وحج وفرائض، هدفها ترقية السلوك الإنسانى، والارتفاع به عن الحمأ المسنون، والنفخ فى هذا الطين ليصير نورانيا، يعلو على طبيعته، فينتفى الخبث، ويبين المعدن الصحيح، ووسيلته إلى هذا المعراج أن يرهب كل من تسول له نفسه بمنع الخير عن بنى جنسه، وهم إخوة بهذا التصوير البليغ ممن أوتى جوامع الكلم ﷺ.

[٢٧]

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يسخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إنى امرؤ صائم، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه**» (صحيح البخارى).

هذا حديث جامع لكثير من أحكام الصيام وآدابه، وليس المقصود بالصوم أن يذوق الإنسان الحرمان من المتع والشهوات، أو ليشعر بحاجة الفقراء، وإن كانت هذه وأمثالها مقصودة، إلا أن الهدف الأسمى هو الإرادة وتربيتها، والسمو بها فوق قيود الحس والمتع الضئيلة، واللذاذات الدنيا التى تربط المرء بطينه، وشحذ

مستمر لتلك الإرادة فى مقاومة مطالب البدن، وهى معركة ينتصر البدن فيها وتنتصر الإرادة، والمهم أن تكون الغلبة لها.

وجعل الله عز وجل ثواب الصيام موكولا إليه وحده، لأنه عمل لا يطلع عليه سوى الله عز وجل، وقد أبهم الله هذا الجزاء، لإطماع النفوس فيه، وتطلعها الدائم إليها، وجعل الصيام جنة ووقاية، على طريقة التشبيه البليغ، ومن العادة أن تغرى المرء هواجسه ووساوس الشيطان فتحدثه نفسه بالرفث ومقاتلة الناس، وشرع الله الدواء الناجع فى مثل هذه الحالات، وهى أن يركن المرء الصائم إلى صيامه يستمد منه العون والصبر على ملاقاة الهواجس والنوازع، وأن يقول: إنى صائم، لازهوا وإنما ركونا إلى الجنة والدرع الواقية، وبهذا يكون الصيام إلجاما لهذه الغرائز التى تشد الإنسان إلى أسفل، وتقييداً لهذه الجوارح أن تنشط ويدفع بها الغضب إلى ما يخرجها عن إطار الطهارة التى ينشدها الصيام فى الصائمين طهارة اللسان وطهارة الجنان، وطهارة الجوارح كلها، لأن بعض الصائمين ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش، وما هكذا يكون الصائم الحقيقى الذى يركن إلى ركن ركين من إرادته وإرادة الصيام معه، لأنه جنة، وما أجمل أن يركن المرء إلى جنة تقيه غوائل الغريزة والجوارح، وسلوك البعض الشائن.

وقد أكد الحديث بالقسم وبلام التأكيد أن خلوف فم الصائم

ورائحته المتغيرة أطيب عند الله من ريح المسك وهنا قلب للموازين أو عدل لها، لأن هذه الرائحة مع كونها منفرة إلا أنها استعلت بفضل الصيام إلى شيء طيب، يفوح عطره، كما بين هذه الفرحة التى يصادفها الصائم بفطره، وهذه أقرب وأهون الأفراح، أما الأخرى فهى فرحته بلقاء ربه، وبثوابه المدخر عنده لصيامه لأن الصيام كما فى أول الحديث لله وهو يجزى به، وما أجزل هذه الفرحة المدخرة التى تأكدت أول الحديث وآخره.

[٢٨]

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً» (صحيح البخارى).

استخدام التشبيه التمثيلى الذى يقرب المثل هو شأن المعلم والمربى العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، إذ يخاطب قوما تنشط حواسهم ويتخذون منها سبيلاً إلى التمثيل، والتشبيه التمثيلى يقوم بهذه الوظيفة على أتم وجه، إذ يضع أمام المتلقى صورة تقرن بصورة مماثلة، أو حالة بحالة مشابهة، وما على المتلقى فى تلك الحالة إلا أن يذعن، ويقول حقًا: صدقت. وترسخ الصورة حين نهايتها فى ذهنه، فلا تغيم أجزاؤها نظرا لهذا التلاحم، لأن إسقاط

أحد أجزاء التشبيه التمثيلي يسقط التمثيل والصورة، وتظل الأجزاء مفككة وما هكذا يكون البلاغ النبوى الذى ارتقى، والذى قرب فى الوقت ذاته كشعاع الشمس قريب وبعيد فى آن واحد.

لقد مثل النبى ﷺ صورة الحرية، وهى مجردة بمثل هذه التصوير، والناس إزاء الحرية صنفان :صنف قائم عليها حارس لها، مسئول عنها وصوره النبى بالقائم على حدود الله، والقيام يستدعى اليقظة والتنبه الشديد، وإلا ما استحق هذا النعت، وهو ليس قائما يلهو، بل إنه قائم ساهر على حدود الله، وحدود الله هى أوامره ونواهيه، فهو موكل بالقيام على تنفيذها، والقيام أيضا يقتضى رفعة تناسب المقام، أما الصورة المناقضة فصورها بالواقع فيها، وفيها استخذاء وتشويه للكيان الإنسانى الذى كرمه الله، فالذى يقع كأنما يكب وجهه إلى أسفل، لأنه والغ فى حدود الله فلا يحافظ عليها، ومن ثم استحق هذا الوصف المنفر.

هؤلاء مثل قوم فى سفينة استهموا واقتسموا أماكنهم وكل واحد أخذ سهمه، فالبعض فى الأعلى، والبعض فى الأسفل، والذين كانوا فى الأسفل إذا أرادوا السقيا والماء اجتازوا بمن فوقهم، فهجس لهم خاطر غريب يناسب المكان والمكانة السفلى: لقد تمنوا أن يخرقوا خرقا فى سهمهم لئلا يؤذوا من فوقهم وكأنهم يرون أنهم على صواب، مع أن عملهم هو عين الخطأ والخطيئة والذين فى أعلى

السفينة موقفهم حاسم إن تركوهم يصنعون ما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وكأن فى تكرار الفعل زيادة بشعة وترهيبا مخيفًا من الهلاك المطبق الذى لا يبقى ولا يذر، وإن أخذوهم وغلوا أيديهم عن هذا الفعل الشنيع ولو بالقوة كما يدل عليه هذا التعبير (أخذوا على أيديهم) كأنهم يبطلون مفعولها، ولا تؤدى وظيفة الإيذاء فى هذه الحالة ينجو الجميع مع تكرار الفعل نجوا مرتين أيضا.

وفى الحديث إلى جانب هذه الصورة البيانية الرائعة تحديد للمسئولية الفردية والحرية الإنسانية المسئولة، لا حرية الفوضى والعبث، لأن الحرية الإنسانية هى أن تتصرف بما لا يؤذى الآخرين، مع أنك ربما تسوغ ما تراه بحريتك، ولو كان وهما وباطلا، فإن المرء لا يكاد يعترف بالخطأ، وفى الحديث تدسس لطيف إلى هذه المعانى التى تشكل دستورا عاما للحرية الإنسانية فى أية أمة وفى أى زمان ومكان، كما يحدد مسئولية القائمين بالأمر لكى يغلوا أيدى العابثين العائثين فى الأرض فسادا، وما الأرض التى نحيا عليها إلا السفينة التى هى مجرد رمز للمساهمة والمشاركة والمعايشة الإنسانية، يصدق هذا على السيارة والمدرسة والمسجد والطائرة وكل مكان يستهم فيه الناس.

كما أن فى الحديث بعض المحسنات البديعية المتمثلة فى الطباق بين القائم والواقع، والعلو والاستفال، وفيه أسلوب التمنى لو أنا خرقنا، ونسبة النصيب إليهم، وثمة مقابلة بين تركوهم وما أرادوا،

وإن أخذوا على أيديهم والصورة العامة فى الحديث محكمة دقيقة النسج، وفيها صور جزئية، صلحت كلها فى أماكنها لترسم جوا موحيا دون أن تلح على هذا الرسم. وفيها الألفاظ الموحية والشديدة الدقة استهموا، أصاب بعضهم أعلاها، استقوا من الماء، أخذوا على أيديهم، وفيها أيضًا السخرية الخفيفة ولكنها كافية لرسم صورة منفردة (والواقع فيها)، وكل هذا يتغلغل دون استئذان إلى ضمير المتلقى الذى شحذت الصورة خياله وأمتعت وجدانه.

[٢٩]

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا، ثم يصبح قد سـتره ربه فيقول: يا فلان: قد عملت البـارحة كذا وكـذا، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه» (صحيح مسلم).

يؤكد هذا الحديث معنى إنسانيا عميقا، يكمن فى أن يكون المرء حييا، فالحياء من الإيمان، ومن الحياء ألا يكون صفيقا متباهيا، أو متبجحا، لكى يكون فى عداد المغفور لهم أو الذين يشملهم عفو الله على أخطائهم، حيث يلوذون بظلال الحياء الذى يمسك ألسنتهم فلا تجاهر بما هو مستور من الله عز وجل.

وعصمة اللسان باب جيد من أبواب الخلق الإنسانى الرفيع، فاللسان حين يفشى ما هو مستور إنما يفتح بابا من الهوان لصاحبه، وبابا من الاستهانة لدى الآخرين فيحاولون أن يقلدوا ما سمعوا، أو على الأقل يهجس فى نفوسهم هاجس شيطانى يسول لهم

أن يقترفوا ما فعله صاحبهم الذى لم يعتصم لسانه عن إفشاء المستور.

ولهذا جاء الحديث بهذا العموم «كل أمتى معافى» حيث يشمل الإعفاء أو العفو كل أفراد الأمة حاشا المجاهرين أى الذين يطلقون ألسنتهم كاشفة ما فعلوه، ومعلوم أن المجاهرين هنا هم ما يجهرون بما صنعوه من آثام، لا المجاهرين بأى شيء على إطلاقه، فهذا إيجاز بالحذف وهو معلوم من السياق خشية الإتيان به تزودا ما دام مفهوما.

ثم شرع الحديث يفصل هذا الإجمال بضرب مثل نحن نعهده فى كلام النبى ﷺ وهو أن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا، وقد حدد العمل بالليل وهو أكنُّ وأخفى وفيه دلالة على ستر العمل، وإن كان العمل نهارا أيضا داخلا فى هذا الإطار، فالمهم أن يكون العمل مستورا عن أعين الناس ولم يحدد النبى ﷺ صفة العمل بل حذف الصفة، ومعلوم أنه العمل السيء أو المذموم، وقد ستره ربه حين عمله، فيصبح قائلا لأصحابه : قد عملت كذ وكذا البارحة، وهى تدل على مطلق الوقت الذى تم فيه العمل ولا دلالة لها على اليوم السابق على اليوم المتحدث فيه.

وقد كرر الحديث الشريف وقد بات يستره ربه نوعا من التوبيخ لمثل هذا العمل الشنيع، لأن الله قد ستره وجاء التعبير بقد التى تفيد التحقيق، وفى البيان أيضا دلالة على الستر، وكلمة «ربه» دلالة على العبودية لله وربوبية الله للإنسان، ومن شأن الربوبية أن تستر.

وهذا التكرار على طريقة التصوير السينمائى البطىء للفت النظر إلى فداحة هذا الفعل وشناعته وقبحه ولنتأمل مثل هذا التكرار الذى يفيد كل هذه المعانى، وليس من قبيل التكرار المعيب، لأنه جاء فى سياق التربية لمثل هذا المجاهر المتبجح، ومثله حقيق أن يكرر له التوبيخ لأنه غير سوى الفطرة، ولأنه يكشف سترا قد أسدله الله على فعله، ومع هذا يباهى به مفاخرا مع أن عمله الردئ هذا لا يصلح له إلا الستر والإخفاء لو كان يعقل الأمور، ويزنها الميزان الصحيح «ثم يصبح قد ستره ربه، وقد بات يستره ربه، فيبت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

مثل هذه الصيغ تكرر المشهد أمام عينيه، فلا يستطيع التفلت منه، وقد جاءت بما يناسب هذا التصوير بالأفعال المساعدة والفعل المضارع بعدها ليفيد استحضار الموقف، وزيادة الإصرار عليه «بات يستره، فيبت يستره، ويصبح يكشف»، وكل هذا يصور ما هو حقيق به من عدم العفو عنه لأنه مجاهر والمجاهرون غير داخلين فى هذا الإطار من الرحمة والعفو، وهم أيضا ما داموا يجاهرون فناسبه أن يكون حديثهم تكراراً لفلان وفلان من الناس وقولهم قد فعلت كذا وكذا والعطف هنا كذا وكذا، دلالة على التكرار أيضًا فى الجهر، فضلا عما فى الحديث من المقابلات اللفظية التى تدل على إبراز المعنى وتوضيحه ما بين الستر والكشف والإخفاء والجهر، ومن كشف ستر الله عنه فهو حقيق بأن يحيق به مثل عمله.

[٣٠]

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«إذا جاء رمضان، فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»

(صحيح مسلم).

فضل الله بعض الأيام على بعض، وبعض الرسل على بعض، وبعض الخلق على بعض، وذلك وفقا لتقدير الله عز وجل، ووضعاً للأمور فى ميزانها الصحيح، ومن أصدق من الله قيلا.

و قد منح الله عز وجل شهر رمضان منحا جمة، إذ اختصه بالصوم وإنزال القرآن، وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، وجعل فى نهايته عيد الفطر، وفيه من الرحمات والعتق من النار ما لا يحيط به سوى علمه.

ومثل هذه المنح الإلهية قدرها الله للصائمين، وجعلها قرين الصوم، وكأنه مكافأة على ما تجشم الصائم وحده بينه وبين ربه من التزام بما أمره الله به، حيث لا رقيب عليه سوى نفسه، وإن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى، وإذا كان المسلم الصائم بهذه المثابة فلا غرو أن يكون لرمضان عند الله وعند الصائم

علامات وبشائر تقترن به، وهى أشبه بالعلامات الخاصة التى لا تكاد تتيسر إلا لهذا الشهر الكريم.

فمن أهم هذه الأمور حين يبدأ رمضان اقترانه بالهلال والصوم والإفطار حسب رؤيته، وهو نظام دقيق يعود المسلم أن ينظم أمور دنياه وأمور دينه، لكن ثمة أمورا أخري لها أهمية ضخمة هي «فتحت أبواب الجنة»، وهذا إيذان بدخول الشهر، وبيان مكانته وتقرأ الصيغة بالتشديد مبالغة فى الفتح فتحت، وإن كان السياق لا يمنع من قراءة التخفيف، وإن كنا نميل إلى التشديد لإيجاد المبالغة والزيادة فى الفتح حيث إن زيادة المبنى زيادة فى المعنى، ويمكن أن يكون الفتح إيحاء برحمته تعالى حيث يهيىء للصائمين بشيرا بما يلقونه من جزاء لقاء صومهم، وحفاوة بقدوم الشهر الذى يحمل فى طياته كل جوانب الخير والرحمات.

وفى مقابل هذا أو يقترن به غلقت أبواب النار بنفس صيغة التضعيف، زيادة فى عفوه وكرمه سبحانه، ومبالغة فى الإغلاق فلا يتسرب منها ما يشعر بوجودها أو بعذابها، وفى القرآن عن امرأة العزيز ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ بصيغة التضعيف أيضاً، ويمكن أن يكون تغليق الأبواب إيحاء بأن العفو شامل للصائمين فلا ينفذ إليهم أى نذير بعقاب ما دام صومهم يستحق مثل هذا العفو العظيم، وكأن الله عز وجل يسد المصدر الذى يمكن أن يتسرب منه ما يشعر بوجود العقاب، حيث إن رحمته سبقت غضبه، وفى هذا أيضا

إيحاء باطمئنان يمارسه الصائم من خلال عبادة الصوم، ويذعن فى إيمان حقيقى أن الله سوف يتغمد تقصيره بالعفو الجميل، ومن ثم تنزرع فى نفسه بذور الأمل والاجتهاد فى نيل الثواب أو نيل حصاد هذا الشهر الذى يبدأ بفتح أبواب الجنة وتغليق أبواب النار، فكيف لو امتد بالصائم أيام رمضان، لا شك أن زيادة اطراد الأيام الرمضانية تزيد الجنة فتحا، والنار إغلاقا، لأن هذا قد تم فى بداية دخول رمضان.

السمة الثالثة صفدت الشياطين، وتصفيد الشياطين تقييدها، فلا تمرح عابثة بالصائم، ولا موسوسة له ،حيث يكون فى حرز حريز من صومه، وإن رياح الجنة تهب ويتنفس الصائم جوا روحيا عجيبا، ترفرف على نفسه فيه الملائكة، إذ هو مهاد روحى شامل، لا مكان فيه لوسوسة، ويمكن أن يكون تصفيد الشياطين إنما هو من قبيل تصفيد نوازع الشر فى نفس الصائم، فلا يترك لهواجسه ولا لهواه، ولا لنوازعه الدنيا، بل إن الله فتح أبواب الجنة فيمرح فى ظلالها وفى أمانها وفى الجنة وفى الصوم جنة ووقاية من الشياطين.

وفى الحديث أيضا المقابلات بين فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار، وتصفيد الشياطين إطلاق الروح الملائكية المفهومة من السياق وكل هذا لإشعار الصائم بأن صومه لله وحده وله جزاؤه عند ربه.

[٣١]

عـن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «من أنفق زوجين فى سـبـيل الله: نودى فى الجنة : يا عبد الله، هذا خير، فمن كـان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجـهـاد دعى من باب الجـهـاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كـان من أهل الصـيـام دعى من باب الريان» (صحيح البخارى).

هذا الحديث يوضح ثواب المؤمنين الصـالحين، والعاملين منهم بوجه خاص أعمالا متواترة، يشفع بعضها بعضا، حيث يتبعون العمل بشىء من جنسه، ويقرنون الطاعة بطاعة مثلها، وهذا ما تشى به لفظة «زوجين» وليس المراد اثنين فقط، لأن المقصود هنا المزاوجة لا محدود العدد، فالمقصود كما هو فى المنطق اللغوى والعقلى، أن يزاوج المؤمن بين أعمال متشابهة، ولو بلغت المئات، لأنها فى قران واحد، واللفظة جاءت منكرة مما يسمح بمثل هذا التحليل والرؤية، وقد حددها النبى بأن هذا الإنفاق فى سبيل الله،

وينبغى أن يصرف هذا التعبير على وجه العموم لا الخصوص، فلا يقصد به الجهاد فحسب وإن كان واردا، والأفضل أن يكون عاما لورود الجهاد بعد ذلك، فكأنه من قبيل الإتيان بالخاص بعد العام، ويفهم من التعبير أن يكون العمل خالصا لوجه الله لا تشوبه مراءاة ولا نفاق، بل يكون صاحبه من المخلصين بفتح اللام وكسرها، لكى يقبل عمله، وإشارة القبول جاء بها الحديث نودى فى الجنة، وقد جاء بالمبنى للمجهول لأن المنادى معروف وهو يكون من قبل الله عز وجل وبأمره، والمناداة تكون فى الجنة بحرف الجر المفيد للظرفية، كأن هذا المنادى عليه فى الجنة وينادى فيها، ولكى يكون فيه نوع من الإشهار الذى يقتضيه النداء وهو رفع الصوت.

هذا النداء بأشرف صفة وهى العبودية لله التى شرف بها رسوله ليلة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، وتجىء البشرى بأن ثوابه خير له، أو أن عمله فى الدنيا خير له باعتبار العاقبة.

ثم شرع الحديث يبين بعض وجوه الإنفاق، وليس المراد به الصدقة وإن كانت واردة، لكن المراد هو العمل الصالح المضاعف من جنسه، وعبر عنه بالإنفاق، لأن ما يصنعه المؤمن من عمل صالح إنما هو من قبيل النفقة، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة وفى هذا إشارة إلى أن كل عمل له باب خاص فى الجنة يعرف داخلوه بسيماهم، وكل عمل له أهله، والأهلية تقتضى

اتصافا كاملاً بها، وإلا خرج عن هذه الأهلية، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، وتحديد الجهاد هنا يجعلنا نميل إلى أن قوله ﷺ فى بداية الحديث: فى سبيل الله، إنما يعنى مطلق الأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله، وإن جاءت العبارة لأول وهلة لتعنى الجهاد، وكذلك الصدقة لها باب خاص يدخل منه أصحابها.

أما الصيام فله باب خاص، وفيه مفارقة عن الأبواب السابقة، فالصلاة بابها الصلاة، والجهاد بابه الجهاد والصدقة بابها الصدقة، أما الصيام فبابه «الريان» وليس الصيام، وكأن فى ذلك إشارة خطيرة وخاصة جدا إلى ما ينتظر الصائم من الرى الذى عرفه فى الدنيا، ولكن رى الآخرة وفى الجنة له مذاق خاص لقاء الجوع والعطش فى الدنيا فناسبه الارتواء المادى والروحى لهذا الصائم المنفق فى سبيل الله من صيام مضاعف، مقرون بمثله.

ولنتأمل قوله ﷺ دعى الواقعة مكررة جوابا للشرط وقد جاءت بصيغة الماضى لأنها متحققة فعلا، فناسبها أن تكون بصيغة الماضى، وليطمئن العاملون المخلصون إلى ثوابهم المحقق والواقع فعلا، وكأن الحياة الدنيا للصالحين موصولة النعيم بالجنة فى الدار الآخرة، أو هما حياة واحدة.

والأعمال الواردة فى الحديث من الأعمال الكبرى، وإلا فهناك أعمال صالحة أخرى تدفع بأصحابها إلى الجنة من أبوابها الأخرى

كـذلك، وبالطبع لا حـرج على فـضل الله، لأن هناك المصلى المجاهد المنفق الصائم، وكلها فى سبيل الله، فلا جرم أن تكون كل هذه الأبواب مفتوحة أمامه، لكن الأغلب أن يدعى من الباب الذى غلب عليه فى عمله، ومعلوم كذلك أن هذه الأعمال يدخل فيها الفرائض والنوافل، وربما يقصد بهذا القران أن يجمع المؤمن بين الفرض والنفل، ليتحقق له ما عناه النبي ﷺ أنفق زوجين، وتلك هى الأخلاق الإسلامية التى تدع الباب مفتوحا أمام الطاقات الإنسانية، ليحقق كل فرد مسلم ما فى ذرعه، وما على المحسنين من سبيل.

[٣٢]

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»

(صحيح البخارى).

الصيام أولا مزية نفسية، ورياضة روحية، وتربية للإرادة والضمير، قبل أن يكون كفا عن الطعام والشراب، أو تعويدا للأغنياء أن يحسوا إحساس الفقراء، لأن الصيام مفروض على الفقراء والأغنياء، فما مزيته إذن بالنسبة للفقراء إن لم يكن لمثل هذه المزية النفسية التى أدركتها أمم كثيرة قبل الأديان الكتابية، التى فرضت على نفسها أنواعا من الصيام، ولها فى ذلك تفسيرات وتأويلات تدخل فى باب الطفولة البشرية، قبل أن تشحذها الأديان والعقائد الكتابية، فتعويد النفس على الحرمان - باختيارها - ليس أمرا هينا فى تربيتها، لأنه نجاء لها من الضعف والخنوع لضرورات الجسد، ونوازع الشهوات، وحث على مضاء العزيمة، و شرف إنسانى يعلو بها على مدارج العجماوات، لا يزهد فيه الأغنياء ولا الفقراء، ولعل هذه الحكمة الإلهية فى الإسلام فى

فرض الصيام هى تربية المسلم تربية صحيحة - يعلو بها على قيود الضعف وخذلان الإرادة، وضرورات الجسد وهى فى الوقت ذاته استعلاء للجانب الروحى فيه، حين يقاوم وحده - بضميره مستقلا - كل مغريات الطعام والشراب، وليس الصيام نوعا من تعذيب الجسد، لأن صاحبه يثبت إرادته ولا يسخر نفسه لشهواته لأنها نفس مستقلة عن ألزم الأشياء لجسده وهو الطعام والشراب وما يلحقهما.

والذى يستطيع أن يثبت إرادته شهرا فى السنة فهو جدير أن يثبت هذه الإرادة حين يدعوها فتستجيب له طوال العام، وتلك مزية نفسية يقررها الصيام فى الإسلام.

وهذا هو المعنى الذى ألمح هذا الحديث الشريف إليه، لأن الصائم عن طعامه وشرابه فقط، واستسلم لغرائزه وأطلق جوارحه الأخرى، ليس يحقق فى نفسه معنى الصوم، وبالتالى فهو مسلوب الإرادة، منخوب الضمير، مفقود العزيمة، وما هكذا يكون المرء المسلم الصائم الذى تغلب على نوازع جسده وجوارحه، وكأين من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وليسا سوى مظهرين فقط من مظاهر الصوم الحقيقى، حين تصوم الجوارح الأخرى فلا تعيث فيها ديدان الشهوة والأرب المئوف.

وأهم ما ينبغى الصيام عنه قول الزور والعمل به، وكأن القول

مقرون بالعمل، وكلاهما يمكن أن يتحقق مفردا، فقول الزور ذنب قائم، والعمل به ذنب آخر قائم، لكنهما حين يقترنان، تقترن كل المخازى فيهما، وفيمن يتصف بهما فليس من اللائق أن يصوم المؤمن عن الطعام والشراب، ويشحذ لسانه وجوارحه الأخرى فى آثام الزور والكذب والبهتان، والكذب أس الكبائر.

وفى الحديث تحذير جاء بأسلوب الشرط والنفى، وجاء الفعل يدع ليؤكد الكف المباشر، فليس ثمة وقت للتخلى والترك وما فى معنى الفعل يدع الذى تكرر مرة أخرى فى آخر الحديث. والله عز وجل ليس به حاجة إلى أحد أو إلى شىء لكن ليؤكد عن طريق الكناية أن صوم الصائم فى هذه الحالة غير مقبول، وعدم قبوله يقتضى عدم تحقق الفعل المستحق للقبول والثواب، وفيه دلالة أيضاً على أن الإسلام لا ينظر إلى عوارض الأمور، بل إلى جواهرها وجوهر الصوم أن يكون تركًا لكل ما سوى وجه الله الذى جعل الصوم له دون الأعمال الأخرى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به.

والصوم كذلك جنة أى وقاية فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث أو يفسق وقول الزور والعمل به من الر فث والفسوق، ولعله من أشد الأشياء قبحا للنص عليه فى هذا الحديث الذى معنا والوقاية التى ينشدها الإسلام أن يكون الصوم طهرة للسان

والضمير، ومن طهارة اللسان والضمير أن ينأى عن المخازى والكذب، وأن يتلقى هذا الصيام تلقيا حسنا يليق به، فإن الجوارح تصوم صوما حقيقيا أو مجازيا إن شئنا، فالعين تصوم عن رؤية محارم الله، وكذلك الأذن والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولاً.

والإسلام لا يرضى لأصحابه إلا أن يتشبثوا بصورة الكمال، وكمال الصيام هنا لا يتحقق إلا بالكف عن الكذب والبهتان، لأنهما نقص، وفى النقص هلاك الإنسانية، وكمالها أن يتحقق لها السعى الحثيث إلى مصدر الكمال من خلال ما شرعه الكمال المطلق، وذلك بإرادة مستمدة من إرادة خالق الإرادة، وكان الصوم بهذه المثابة معراجا لها إلى صورة قريبة من الكمال ولله المثل الأعلى.

[٣٣]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الصدق يهدى الي البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»

(صحيح البخارى) .

هذا الحديث باب رحب للأخلاق الإسلامية التى ينبغى أن يتخلق بها الإنسان المسلم، حتى تغدو سليقة له لا يحس أنه يأتى بها تخلقا «إن التخلق يأتى دون الخلق» كما يقول الشاعر وكون الأخلاق سجية يقترب من كونها تشبه وظيفة عضوية، لكل جارحة سجيتها التى فطرت عليها فكأن الخلق يقطر من نفس صاحبه كما يقطر الماء من الينبوع أو العرق من بين الأصابع، وهذا سلوك راق ومهذب يحرص عليه من كان خلقه القرآن ومن وصفه ربه بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

وقد حصر هذا الحديث الخلق في وظيفة إيجابية وأخرى سلبية، ولكل واحده منها توابع تترتب عليها وتقترن بها، فعماد الخلق

الأول الصدق، وتحريه كما فى حديث آخر، والصدق مشتق من الحديد الصدق أى الصلب ، فكأن الصادق حديد فى خلقه، لا تلينه المغــريات، ولا يمتطى الكذب أو المركب الذلول لان فى طيع الصدق وجوهره الصلابة فى الحق وفى الضمير. ومن شأن الصدق أن يهدى إلى البر، وهو حسن الخلق والخير، وهذا البر باب إلى الجنة، والهداية هنا على وجهها لأنها فى الخير والطاعة والثواب، ومن شأن هذه الأمور أن تتطلب الهداية من رب الهداية، إضافة إلى ما ركب فى طبع الإنسان المسلم الصادق من حب ورغبة فى الصدق

ثم يجىء هذا الخلق الذى يجىء سجية وحده مع هذا التأكيد المزدوج «إن الرجل ليصدق» بإن المؤكدة ولام التوكيد، ويمكن أن تكون الواو للقسم، زيادة فى هذا التقرير وهذا الرجل يكتب عند الله صديقاً، هذه الصيغة للمبالغة التى تؤدى معنى تأكيد الصفة وتكرارها واستمرارها، ومن ثم كان أبو بكر ملقبا بالصديق، الذى عهد منه الصدق دائما.

ثم يجيء عماد الخلق الثانى، بيد أنه الخلق السلبى أو المذموم وهو الكذب وقد قرن النبى ﷺ الصدق بالهداية وهو نعت فى موضعه، ثم قرن الكذب بالهداية، وهو من باب المشاكلة ومن باب التهكم بالكذابين، أو أنهم موكولون إلى أنفسهم التى تهديهم إلى الفجور والفحش هذه الهداية هى الضلال بعينه، كذلك الفجور

يهدى إلى النار، لأن الكذب أس الرذيلة، وقد جاء مثل هذا التهكم فى القرآن الكريم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وجاء ختام هذا الخلق بما تقرر فى الخلق الأول لكن على التضاد، «وإن الرجل ليكذب» بهذا التوكيد المزدوج أيضا، وبالواو التى يشتم منها رائحة القسم، ويمكن أن تكون للعطف، وإن كان القسم أولى من هذا العطف، ، وهذا الكاذب بتحريه لهذا الخلق الذميم يكتب عند لله كذابا، سجية وتمرسا، وامتدادا طول الحياة وحسبه أن يكتب عند الله الذى يعلم السر وأخفى لأنه يمكن أن يكذب وينطلى كذبه على الناس، أولا يكتشفونه فيظل بينهم بسمت الرجل الخير الصالح، وهو كاذب

وفى الحديث حسن تقسيم للجمل، كل فريق له ثلاث جمل، تكاد تكون قسمة واحدة متساوية، وهذا نسق عالٍ من الأداء، فضلا عن المشاكلة االلفظية بين يهدى ويهدى، وهى باب للتهكم فى الفريق الثانى، ثم جاءت المحسنات البديعية متمثلة فى الطباق أو المقابلة بين ألفاظ متدابرة أو معان متدابرة بين الجمل، والحديث كذلك يستخدم أدوات التوكيد فى كل جملة كأنه يخاطب أناسا فاحتاج إلى أدوات التوكيد، وكأن هذا الشك إنما جاء لاستهانة الناس بالكذب أو عدم تحريهم له، أو فهمه على غير وجهه كما نقول الكذب الأبيض مثلا وهو خلق ذميم إلا إذا أصلح بين الناس ولا يصير سليقة، وكل هذه الأساليب حجة ناصعة على بلاغته وحسن خلقه.

[٣٤]

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه» (صحيح البخارى).

التناسب العجيب بين فقر هذا الحديث الشريف ملمح بارز بين دلالة الأفعال فيه، والتى يمكن أن ترجع فى أصل معناها إلى دلالة واحدة تجمع هذا الشتات بين المعانى التى يظن أنها بعيدة عن الأصل الأول الذى تؤول إليه وهى فى الحقيقة معنى واحد أو على الأقل معنى متقارب فالجذر الجامع بين هذه المعانى فى الحديث هو الصلة أو الوصل فى قوله ﷺ فليصل رحمه، والاتصال منع للقطع، وفيه معنى السريان المتواصل، وفيه معنى الجمع الذى ينفى الشتات والبت، فالرحم الموصولة رحم واشجة، ليس فيها إلا متانة السبب الواصل وهي نافية للقطع الذى يمكن أن ينشأ بين ذوى الأرحام إذ تصل هذا القطع حين يكون مرة بعد مرة ليتحقق فيه دوام الاتصال أو كمال الاتصال كما فى البلاغة.

ولنتأمل قوله ﷺ ينسأ له فى أثره، إذ يتحقق فى هذا الفعل ينسأ، أى يؤخر ويمتد، معنى الصلة لأن الذى لا ينسأ يقطع ولا يمتد وفيه معنى الموت الذى يقطع كل صلة بالحياة لصاحبها أو أثره

من بعده كذلك نتأمل الفعل «يبسط» والبسط ضد القبض الذى يمنع الجريان، فالكف المقبوضة لا تسيل بالجود وتنقبض الأصابع فيها فتشوه كما هو الحال فى المرضى والأرض المبسوطة الممتدة، والشرح المبسوط هو الممتد المتعمق غير الضحل والنزر والوجه المبسوط هو غير المتغضن بالتجاعيد والكآبة، وكل هذه المعانى داخلة في إطار الاتصال والامتداد ، فالحديث فى جملته غريب فى هذه المعانى الغريبة التى تدور كلها حول معنى واحد هو ما عبر عنه الحديث بقوله ﴿فليصل رحمه﴾ فشاعت الصلة فى أوصال الكلمات المعبرة عن هذا المعنى الرحب من الاتساع والامتداد وكمال الاتصال الذى يدابر القطع والبتر.

كذلك ساعدت هذه التقفية الداخلية بين الفقر على المعنى المراد فى قول ﷺ فى رزقه فى أثره، رحمه فالتقفية هنا جديلة واحدة تجدل هذه المعانى التى أصبحت نغمة موسيقية تمتد رحبة لتساعد هذا النسق المعنوى على الاتصال بالنسق الشكلى الموسيقى، صحيح أنها ليست مسجوعة، لكنها موسيقية من حيث التنسيق اللفظى بين رزقه، وأثره ورحمه، بصرف النظر عن الهاء الضمير لأنها ليست السجعة، فتآزر المعنى مع الشكل اللفظى والموسيقى مما يوحى بالاتصال كذلك، لأن نغمة واحدة موسيقية تربط كل هذه المعانى وهى مترابطة من حيث المعنى المؤدى من خلال هذا الشكل اللفظى البديع.

وفى الحديث حث جيد على صلة الرحم بتقديم الجزاء أو الثواب عن طريق الترغيب المحمود فيه، فصلة الرحم وهى سبب كل هذا الجزاء جاءت متأخرةكأنها تقول إنها السبب فى هذا التقديم الثوابى ومن منا لا يسره ما جاء من ثواب: من بسط الرزق بضمير الملكية رزقه، لا مجرد الرزق، والله سبحانه وتعالى هو الباسط لهذا الرزق المعبر عنه بالفعل المبنى للمجهول لمعرفة الفاعل الحقيقى وهو الله عز جل ومن نسيئة فى الأجل أو فى الأثر، وهي البركة فى العمر حتى ولو كان قليلا، لأن العمر فى هذه الحال إنما يقاس بعرضه لا بطوله، أو أن الله كتب طول العمر لمن عرف عنه أزلا صلة رحمه، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، أو يناله فى أثره بمعنى ذريته وأثره من بعده فتنشأ الذرية صالحة على رعاية الحرمات وصلة الأرحام، والله هو الذى يقدر الآجال والأعمار ولذا جاء التعبير بالفعل المبنى للمجهول معرفة بالفاعل الحقيقى وهو الله عز وجل.

وفى الحديث تدسس خفى إلى الفطرة الإنسانية التى تميل إلى الأثرة والأنانية فذكرها بصلة الرحم وجعل الله لها اسما من اسمه الرحيم، وأن الرحمة نعيم إلهى يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده.

[٣٥]

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت له امرأتان فمال إلي إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط**»

(سنن النسائى ، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجة، وسنن الإمام أحمد ، وسنن الدارمى) .

العدل الإنسانى عدل نسبى، بخلاف العدل الإلهى الذى هو مطلق وغير محدود، والعدل نظام كونى لا يتخلف وإلا جرت الأمور بغير القسطاس، ومعهود أن العدل يتحقق بالتناسب، حتى بين الأعضاء، فلا ينحرف عضو عن عضو آخر، يأخذ وظيفته، وأن البنية الحية موظفة وفقا للسنن الإلهية أن تتعاون أعضاؤها، كل فيما يتعلق بوظيفته المنوطة به، وغير ذلك خلل واضطراب ربما تقوم اليد أحيانا بوظيفة القدم، لكن ذلك خلل فى الوظائف لا يثبت نظاما، ولا ينفى قاعدة مطردة، وكذلك المجتمع الإنسانى الذى ينبغى أن يقوم على العدل المستطاع إنسانيا، فلا يجور إنسان على إنسان خاصة إذا كان المجار عليه ضعيف الحول، لأن في

ذلك عدلا عن السنن والضوابط المرعية فى النظام والأخلاق التى هى قائمة على الرحمة والقوة الموزوعة.

لكن المشرع الحكيم يعرف الفطرة الإنسانية.، فلا يفرض عليها إلا ما يتسق معها، ولا يدابر تلك الفطرة، وإلا كان تكليفها بما لا يطاق ومن ثم كان هذا الحديث الشريف الذى معنا، والذى يؤكد العدل المستطاع والممكن والمتاح حيث يقرر أن الميل القلبى لزوجة دون أخرى هو طبيعة فى النفس البشرية، وتأثيم هذا الصنيع عسير وتكليف بما لا يطاق.

ولعل هذا الحديث يقرر ما قررته الآية الكريمة: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

فالآية والحديث يقرران قاعدة هى نفى الميل كل الميل، والذى هو إثم وحرج لا يصنعه المرء المسلم الذى ديدنه الإصلاح والتقوى، كما تقرارن - الآية والحديث - قاعدة العدل فيما سوى الميل القلبى، حقيقة إن الميل القلبى قد يدفع إلى عدم العدل فى غيره، ومن هنا حرص الإسلام على نفى الميل كل الميل والذى فى أساسه لا يقوم على مبدأ شرعى وأخلاقى.

وحسن أن يلتقى الحديث النبوى مع الآية الكريمة فى تقرير الصفة وعلاجها فى الوقت ذاته، فهما يثبتان الميل وينفيان الجور

فيه، ويلتقيان مع الحديث النبوى الآخر: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك» وإذا كان النبى ﷺ وهو من هو عدلا وإنصافا فما بالك بغيره من المؤمنين، ونعتقد أنهم مطالبون بالتأسى والاقتداء بالنبى ﷺ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

والحديث يصور صورة بشعة، يرفعها أمام أعين الجائرين القاسطين، فقد قرر أولا ملكية الرجل لامرأتين بقوله (له)، ولفظ امرأتين ينصرف إلى المثنى والجمع أى أكثر من امرأة واحدة، الثابت بها التعدد، ولولا ذلك ما دخل فى الحكم من عنده ثلاث أو أربع من النساء، فالتثنية هنا مقصود بها مطلق الجمع بين أكثر من امرأة، ثم صور الحديث أن يميل الرجل إلى إحداهما أو إلى إحدى زوجاته تبعا للمراد من التثنية، والميل حركة منحرفة عن الاستواء وإن كان مقصودا بها الميل القلبى الذى ليس فى وسع الإنسان أن يكبحه ويلجمه، وإن كان عليه أن يكافح ويجاهد فى ضبطه لأن الإسراف فى الميل القلبى يؤدى إلى إسراف فى ميل آخر لا يدخل فى حدود المباح.

يصور الحديث هذه الصورة المنحرفة فى الدنيا بنظيرتها يوم القيامة والجروح قصاص فهذا المائل الجائر لا يمكن أن يأتى يوم القيامة إلا على صورته فى الدنيا، وإن لم تكن صورته فى الدنيا

محسوسة، لأننا لا نرى الميل القلبى الجائر فى هذا السياق الدنيوى، فإن هذا المائل يجىء وأحد شقيه ساقط وهى صورة بشعة منفرة، تشهد بما كان عليه صاحبها فى الدنيا من جور وسقوط، وكيف يستقيم فى يوم الهول الأعظم أن يسير وأحد شقيه ساقط، إن الأسوياء فى هذا اليوم لا يمكنهم أن يسيروا حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت، فكيف بهذا الشق الساقط الذى يؤخره عن المسير وعن الصدارة والتعبير بالسقوط أشد وأفظع من الميل، لأن الميل يمكن أن يسقط إذا اشتد، فصور الميل هنا بالسقوط تنفيراً وتقبيحا لهذه الصورة المنفرة البشعة المائلة والساقطة عن الاستواء.

[٣٦]

عـــن أبــى هــريــرة رضي الله عنه عن الـنـبــى ﷺ قـــال: «أرأيتم لو أن نـهـرًا بباب أحدكم يغتسل فـيـه كل يوم خمسا، ماتقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئا قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا».

(صحيح البخارى).

التعبير بالصورة إحدى وسائل التعبير النبوي، ولعله ﷺ كـــان يتوخى أن يرسم صورة، يرفعها أمام الأعين مشاركة الأذن فى الاستماع، فتتحقق الرسالة، وتصل إلى الأفهام من أقرب طريق، ترسخ فى النفوس، وربما تكون الصورة جزئية عن طريق التشبيه الإفرادى، وربما تجئ صورةمركبة عن طريق التشبيه التمثيلى، وتتآزر الجزئيات فيها وتتعانق لتشكل صورة كلية مجملة، تحتل الجزئيات فيها مكانها المناسب والمحدد، ولان الأبصار منافذ للفهم وحسن التصور للأمور المعقولة كان تركيز الصورة الحسية عليها فى مـــجـــمل الكلام فى هذا الحـديث الشـريف، ولعل الـتـعـبـيـر الاستفهامى بالرؤية أحد هذه المنافذ الأساسية حتى ولو كانت رؤية

علمية، لأن الرؤية العلمية هنا بابها الرؤية البصرية التى هى وليجة لرؤية البصيرة. والجزء الأول من الصورة هو النهر الذى يغتسل فيه الناس خمس مرات، فيزيل ما علق بهم من أدران وأقذار، والتعبير بحرف الجر «بباب أحدكم» يفيد المجاورة والملاصقة كأنه جزء من هذا الباب يتحرك بحركته، وليس مجرد أن يكون أمام الباب، لأن الأمام يطلق على ما هو قريب وبعيد، أما الباء هنا فتفيد أمرا أقرب إلى الامتزاج والتوحد، لأن النهر فى هذه الحالة جزء من الباب وكأن الصلاة أيضا جزء من المرء المصلى، ليست منفصلة عنه، فتحسّن صورته، ويغتسل من الأوشاب والأدران وربما يكون النهر بباب أحدكم ولكنه يمر دون أن يترك أثراً فى هذا الأحد، لأنه لا يلابس ماءه ولا يغتسل فيه فكأنه لا أثر لهذا النهر، ولذا جاء التعبير بقوله ﷺ يغتسل فيه كل يوم خمسا، إشارة إلى الصلوات الخمس وإشارة أيضا إلى استحباب الوضوء لكل صلاة، حتى ولو كان المرء على وضوئه، زيادة فى النظافة والطهارة، ويفيد التعبير أيضا أن المصلى ربما يلامس الصلاة دون أن تترك أثراً فى نفسه لأنه لم يتهيأ لها تهيؤا كاملا، ولم تتطهر نفسه من أدران الانشغال بغير الصلاة، وهنا تكون جملة الصفة أو جملة الحال (يغتسل فيه كل يوم خمسا) ليست فضلة ولا حشوا فى الكلام، كما جرت العادة عند النحاة فى وصف النعت أو الحال، بل هى هنا عمدة فى الكلام ينقص بدونها نقصا فاحشًا، وهذا من

حسنات الكلام النبوى الشريف، وفى النهر إشارة أيضا إلى التجدد والسيرورة، حيث تكون الصلاة كذلك تجديدا دائما ومتصلا اتصال الماء الجارى فى النهر.

يسأل النبى ﷺ أصحابه سؤال العارف، ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ وفيه من التشويق، والإثارة للإفهام أن يكون ثمة حوار بين السائل والمسئول، يشارك كلاهما فى تصور الإجابة، وتكون الإجابة من الصحابة بقولهم: لا يبقى من درنه شيئا، وجاءت الإجابة بنفى تفصيلى لتأكيد المسألة، وأسند زوال الدرن للنهر، كأن الصلاة أيضا تصنع صنيع هذا النهر.

ومن الغريب أنه لم يرد ذكر للصلاة حتى هذا الجزء من الحديث، بل إن الكلام كله منصب على النهر، وعلى الاغتسال فيه خمس مرات كل يوم، وهذا من شأن الكلام النبوي الذى يوحى بالمراد، وتوحى به الصورة فى الوقت ذاته، وتشى العبارة فيغتسل فيه كل يوم خمساً بطهارة الصلاة، لذكر المرات الخمس، والعدد هنا محدد وله مفهوم معين، هذه العبارة فقط هى التى توحى بأن الكلام عن الصلاة التى حدد النبى ﷺ الجزء المتمم للصورة لها بأن ما سبق هو مثل الصلوات الخمس التى يمحو الله بها الخطايا، ولعل المحو أشد من الاغتسال فى إزالة الأدران والأقذار، لان المحو إزالة تامة لما علق بالجسم أو بالنفس من أدران.

وملموح كذلك أن هذا التطهير المقصود فى الحديث يندرج تحته كل أنواع الطهارة الحسية والمعنوية، وربما كانت أدران الروح والنفس أشد من أدران الجسد والحس، ولعل تتابع الجريان والسيولة من النهر ومن الصلاة يفعل نفس الفعل فى نفس المصلى وفى حسه، فتزكو الروح وتتطهر .

[٣٧]

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم، «ولا تتخذوها قبورا» (صحيح البخارى).

إرادة المعنى المجازى مع المعنى الحقيقى من سمات الكلام الجيد، وهذا يعنى تعداد المستويات الدلالية فى الأسلوب الأدبى، وكلام النبى ﷺ عالى الكعب فى البيان الأدبى الإنسانى، حيث تتخذ الدلالة صورا تتشكل حسب المراد، وإذا انصرف الذهن إلى الدلالة الحقيقية فلا تثريب على هذا الذهن إذا انصرف فى الوقت ذاته إلى الدلالة المجازية المصورة، حيث تتزاحم الدلالات دون أن تتناقض، بل يكون تزاحمها من قبيل الثراء البيانى الذى يمنح الكلام أوجها تتآلف ولا تتنافر.

وآيه ذلك أن قوله ﷺ عن البيوت «ولا تتخذوها قبوراً»ينصرف فى الذهن إلى اتخاذ البيوت قبوراً حقيقية يدفن فيها ذووها بعد وفاتهم، وعدم اتخاذها قبوراً مفهوم من الشارع أن البيوت للحياة وأن القبور للأموات الذين سقط عنهم التكليف، ويمكن أن تنصرف الدلالة إلى التشبيه البليغ المحذوف الأداة ووجه الشبه

وهذه هى الدلالة المجازية أى لا تتخذها كالقبور، وهذا المجاز هو الأقرب إلى المراد فى هذا السياق، وإن كان لا يمنع الدلالة الأولى على تأويل مراد، ويوحى هذا المجاز بأن البيوت تعمرها الصلوات حيث الحياة المؤمنة الخاشعة التى هى نور ووهج يشع فى البيوت ويضيئها، وهذا ملمح خفى، حيث تناقض القبور البيوت ولأن القبر لا يسكنه إلا الموتى، فكأن البيوت حين تخلو من الصلوات فيها إنما تصير كالمقابر لا يعمرها إلا الموتى الذين هم فى أسلاخ الأحياء وما هم بأحياء وكأنهم قد سقط عنهم التكليف كالموتى حين لا يصلون فى بيوتهم، وكأن البيوت حين تقام فيها الصلوات إنما هى منبهة لأهل البيت أن يكون الرجال فيها قدوة للنساء والأطفال والعجزة الذين لا يرتادون المساجد لعلة، فتكون الحياة شاملة رب البيت ومن هم فى حوزته، فيعم النور والضياء أرجاء البيت فلا يشبه فى هذه الحاله بالمقابر.

وفى الحديث بيان آخر يوصى به ذكر الصلاة فى أول الحديث حيث حين تكون الصلاة نورا وأمارة حياة، وإن البيت يعمر ويضىء بالصلاة، وأن البيت الخالى من الصلاة بيت خرب مظلم وموحش كالقبر.

ومعلوم أيضا أن قوله ﴿من صلاتكم ﴾ أى بعضا من صلاتهم، حيث تكون (من) للتبعيض، وإن البعضية هنا تطلق على بعض

الصلاة لاكلها أو على بعضها من حيث الرتبة كالفرائض والنوافل، فتطلق هنا على النوافل فى بعض التوجيهات، حيث تكون الفرائض موضعها المساجد، وصلاة الجماعة حيث نصت أحاديث أخرى على أدائها فى المساجد، وإن كنا نعتقد أن بعض الفرائض تؤدى فى البيوت جماعة وإن كانت لا تساوي فى الأفضلية الصلاة فى المساجد، فالحديث الشريف يقول اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم، وانصراف الدلالة إلى أى صلاة يرشح لها السياق، وجعل البيوت محل الصلاة يرشح لها حرف الجر (فى) التى هى للظرفية.

وفى الحديث مقابلة لطيفة بين البيوت والقبور حيث تتقابل الحياة والموت فى الحقيقة وفى المجاز كذلك، لأن الصلاة نور وحياة، والموت ظلمة ووحشة وفناء، ولأن الإنسان الذى يضىء بيته بصلاته إنما يضىء حياته، ويبعد هنا شبح الفناء، وعكسه الذى لا يضىء بيته بصلاته إنما يقرب منها شبح الفناء ويتهددها الظلمة الموحشة، وخراب النفس.

[٣٨]

عـن أبى مـالك الأشعرى قال: قـال رسول الله ﷺ: «الطهـور شطر الإيمـان، والحـمـد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد الله تملأ ما بين السمـاوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» (صحيح مسلم).

الجـملة المكثـفة والمركـزة والمصورة فى الوقت ذاته ملمح عـام فى هذا الحـديث الشريـف، كذلك حسن التـقسيم، والجرس الموسيقى القـائم على تسـاوى الفـقـر، ونظلم التـقـفيـة آية واضـحـة فى هذا الحـديث، ولعل تـقـفـيـة النون فى(الإيمـان - والميـزان - وبـرهـان) توضح هذه الخـاصيـة فى الكلام المسجوع الذى لفرط عفـويتـه لا نحس بـه، بل يذهلنا بـه عنه، وليس من ذلك السجـع الذى عـرفتـه الجـاهليـة باسم سجـع الكهـان ولا بالسـجع الذى عـرفـتـه العـصـور المتـأخـرة الملىء بأوزار الصنعـة والتكلف، بل إن هـذا السـجـع فى محله المحتوم يؤدى خدمة للمعنى، ينتقص بدونه.

والصورة القائمة هنا على التشبيه البليغ المحذوف الأداة ووجه الشبه، تؤكد سمات الكلام النبوى، من تصور المجردات والمعقولات فى صور حسية قريبة من الأفهام، ولذلك جاء التعبير فى الجملة الأولى بأن الطهور شطر الإيمان، أى نصفه بالتشبيه البليغ، وجاء فى الجملة الثانية «الحمد لله تملأ الميزان» بصورة الاستعارة، والتسبيح والحمد كذلك يملأ ما بين السموات والأرض، وأيضا تصويره الصلاة بأنها نور، والصدقة بأنها برهان، والصبر بأنه ضياء والقرآن بأنه حجة، ثم بيع النفس وعتقها أو هلاكها.

لم تخل جملة واحدة تقريبا من صورة مجسمة، لكنها ليست الصورة المتكلفة التى تأتى لمجرد التصوير بل الصورة التى لايتم أداء المعنى إلا بها، وبهذا النسق النبوي، ولنتأمل بعض هذه الصور والعبارات فالإيمان شطور أو شطران الطهور شطره، والمقصور كما هو واضح (أل) التعريفية هنا أنه الإيمان المعهود (الكامل بالمعنى الشرعى، لا مجرد الاتصاف بأى إيمان وإن الطهارة هنا هي مطلق الطهارة طهارة الحس وطهاره النفس، وإن ثمة مراتب لهذه الطهارة لابد من تحقيقها ليتم شطر الإيمان، إنها طهارة الطاعة، وطهارة النفس عن المعصية، وطهارة الجوارح والحواس، وطهارة الفكر عن الانحراف، وهى نقطة شديدة الأهمية، لأن الفكر المنحرف الضال نجس لا يدخل فى شطر الإيمان، ويعيد عن الطهارة المرجوة.

ثم كانت الحمد لله تملأ الميزان، والميزان معهود وهو لا يملأ إلا بالحمد لله والثناء عليه، وتصور أن مجرد كلمة صادقة يستشعرها القلب المؤمن، وينطق بها اللسان الصادق الرطب بذكر الله تملأ هذا الميزان، ثم كرر ﷺ الحمد مرة أخرى لبيان الأهمية وكيف أنها مع التسبيح وتنزيه الله تملأ ما بين السماوات والأرض، بصيغة الجمع فى السماوات، والإفراد المقصود به الجمع أيضا فى الأرض

كل هذا الذى تقدم كأنه مقدمة لما سيأتى من أن «الصلاة نور»، حيث يكون من مقدماتها الطهارة الحسية والمعنوية التى تتحقق فى الصلاة، وكذلك تكون الصلاة أيضا جامعة للحمد والتسبيح والتنزيه، وكل هذا يوصف فى لفظ الصلاة بأنها نور، تهدى من يؤديها خير أداء، ومقصود بها الهداية حيث تكون الظلمة الحسية والمعنوية عائقا عن تلك الهداية التى تتحقق بالصلاة.

ولما كانت الصلاة فى القرآن مقرونة بالزكاة أو الصدقة فقد ذكر ﷺ الصدقة بعدها ، وكيف أنها برهان أو دليل على طهاره النفس من الشح وكأن الكلمة الجامعة التى جاءت فى أول الحديث «الطهور» تجمع هذا العقد النظيم كله في الحديث، ولأن كل الأمور المذكورة فيه لا تتحقق على وجهها إلا بالطهارة، وجاء قوله ﷺ الصبر ضياء، لهذه الصورة لأن كل العبارات والتكليفات الشرعية وغيرها لا تتحقق إلا بالصبر على الطاعات والصبر على المعاصى

ولذلك اقترن بصورة الضياء الشامل وهو أقوى من النور ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ لأن الصبر يقتضى تلك القوى النفسية التى يكون الضياء رائدها ومحققها.

والقرآن حجة لصاحبه أو عليه، يشهد لصاحبه ويشهد عليه فى الدنيا والآخرة، والحجة هنا ملزمة وواجبة النفاذ والإيمان.

ووضح النبى ﷺ موقف الناس جميعا، حيث يغدون، مبكرين نشيطين، وجاءت بصفة الإفراد (يغدو) لتحقق المسؤلية الفردية والناس أحد اثنين حين يبيع نفسه لله أو للشيطان ففى الحالة الأولى يعتق نفسه لأنه نذرها بيعا خالصا لوجه الله، حيث تحققت فيه الصفات السابقة، وجاء ذكره ﷺ معتقها أولا للحث والإسراع ولأنه الفطرة السليمة التى جاء بها القرآن العتق من النار ومن العذاب والآخرموبق نفسه يوردها موارد الهلاك دنيا وآخرة.

[٣٩]

عـن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً» (صحيح البخارى).

دلالة الكلمات يحددها السياق فى أغلب الأحيان، وإلا فإن النداء يقصد به أى نداء فى غير هذا السياق، وكذلك الصف الأول يمكن أن ينصرف إلى أى صف فى أى جـهة، لكن الحديث فى سياقه يؤكد أن النداء مقصود به الأذان والدعوة إلى الصلاة، وكذلك الصف الأول ليس فى الزحف أو المشى لكنه الصف الأول الذى يلى الإمام فى الصلاة كذلك وهذا من المباحث الدقيقة فى الحديث النبوى، ولولا ذلك لكان ـ ﷺ يخاطب قوما لاتصل رسالته إليهم، حيث لا يعلمون المراد، فضلا عن أن الناس الموجه اليهم هذا الحديث ليسوا أبناء زمانه ﷺ، بل إنهم الناس فى كل العصور، ومع ذلك يظل للكلام مراده ومعناه الذى لا يخفى على الناس فى كل الأزمنة.

ومعلوم أن القرآن الكريم أطلق النداء على الأذان أيضا في قوله تعالى ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾.ونعتقد أن لفظ النداء فى موضع الأذان له دلالة بلاغية حيث تتوقع الاستجابة بعد النداء، لأن المنادى لا بد أن يجيب وإلا كان فى أذنيه وقر، وفى نفسه عمى، ولذلك جاء فى ألفاظ الأذان «حى على الصلاة، حى على الفلاح» أى نداء ودعوة إلى الإقبال على الصلاة والفلاح المترتب عليها، ثم كان (الصف الأول) فى قوله ﷺ، لأنه الاستجابة المباشرة والعملية لتحقق النداء، وكأنهما شيء واحد، لأن الملبى للنداء يسرع إلى الصف الأول حيث القربى والاتصال الحميم بصاحب النداء والدعوة وهو الله عز وجل»

ثم بين الحديث أن هناك مسابقة جميلة وهى الاستهام أى الأخذ بالأسهم والاقتراع عليها، حيث يتسابقون إلى النداء وإلى الصف الأول، وفى هذا إشارة إلى قوله تعالى﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وإلى المسارعة إلى المغفرة وطلب الثواب من الأذان والصف الأول وواضح حركة الصورة من الاستباق القائم بين الطائعين إلى إحراز قصب السبق، حيث يهرعون إلى هذه الفضيلة من الأذان والصف الأول، وهذا وإن كان من عمل أولى العزم، لأنهم لا

يؤدون الصلاة فحسب بل يحاولون إحراز الفضيلة العليا من الأذان ومن الصف الأول ففى هذا شخذ للهمم المؤمنة ألا ترضى بالقليل وبمجرد أداء الطاعة بل عليها أن تطلب الكمال والمثل الأعلى وقد ذكر الرسول ﷺ ضميرا واحدا فى قوله «يسهتموا عليه »مع أنه ذكر النداء وعطف عليه الصف الأول وهما أمران اثنان لكنهما بهذه الصفة كأنهما شيء واحد فناسب أن يعود عليهما ضمير مفرد.

ثم جاءت بقية الحديث لتؤكد معنى جديدا يمكن أن يندرج فى القسم الأول منه لأن النداء والصف الأول مقترنان بكل صلاة، لكنه ﷺ يعرف بزكانته الفطرة الإنسانية وكيف أن الناس تكسل، ولا تكون نشيطة فى وقتين اثنين هما صلاة العشاء والصبح،فربما ركن الناس فى بيوتهم فصلوهما مفردتين، لكن الحديث يؤكد فضيلة عليا يحث عليها أصحاب الهمم والعزائم التى لا تركن إلى الراحة وإيثار الدعة والكسل فأكد ﷺ أن الناس لو علموا الثواب المدخر لهم فى إتيان الصلاة فى العشاء والصبح لكان لهم شأن آخر، وقد حذف الحديث هنا متعلق الفعل (يعلمون) وتقديره: لو يعلمون ما فى العتمة والصبح من خير وثواب وفضيلة، لأن الحذف هنا يجعل النفس تقدر ما شاء لها من التقدير من فضل لله وإحسانه، «لو يعلمون لأتوهما ولوحبوا»، وواضح ذكر الضمير هنا بالتثنية لأن

لكل صلاة وقتا محددا تركن فيه النفس للكسل فناسب أن يعود الضمير مثنى، ومقصود بالإتيان هنا الإتيان للمساجد لأداء الصلاة، وواضح فى التعبير الحركة والسرعة حتى على المشقة المستفادة من قوله ﷺ ولو حبوا لأن الحبو هو المشى على الأيدى والأرجل، والتصوير بهذه الصفة حث رائع للكسالى حيث يهرعون إلى الصلاة ولو بهذه الصورة من المشى على اليدين والرجلين، لأنهم يريدون النداء والصف الأول كذلك لا مجرد الصلاة فقط، بل صلاة الفضيلة.

[٤٠]

عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»

(مسند الإمام أحمد).

الإيجاز الذى يحتقب المعانى دون أن يمنع إرادة المعانى الأخرى سمة الكلام الجيد وخاصة الكلام النبوى الذى يشير إلى المراد ويؤديه بأقرب طريق، وإلا فبم نصف قوله ﷺ حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ومعلوم أن عقوق الآباء وارداً أيضا، وإلا كان مخالفا للهدى القرآنى والنبوي، وربما كان العقوق عموما واردا أيضا لمن هم أصحاب فضل علينا أو لمن هم فى منزلة الأمهات من الأقارب، فالعقوق حرام فى كل هذه المواطن مع اختلاف فى الدرجة وتغاير فى النسبة وربما كان تركيزه ﷺ على عقوق الأمهات بالذات لأنهن أضعف وأولى بالرعاية من الآباء، وأحوج إلى العطف والبر من الأبناء، فالمسألة درجة ونسبة فقط. لكن الحرمة عامة لكل عقوق يمس الآباء والأمهات.

وقوله ووأد البنات ، أى حرم عليكم وأد البنات وهى عادة شائعة فى الجاهلية فى بعض القبائل لاكلها ، حيث الفقر والعار أو كلاهما معا، لكن هذا لا يمنع أن يكون الوأد عامًا بحيث يشمل الآن الوأد المعنوى وهضم حقوق الأنثى فى المعاملة الكريمة، وفى الميراث عند بعض الناس، وفى غير ذلك من أنواع المعاملات التى تدخل فى نطاق بخس الحقوق والقتل الروحى للبنات، حيث إن عادة الوأد كانت قد انتهت لكن الشعور بالبنات عند بعض الناس الذين يبيعون بناتهم فى زيجات غير متكافئة لا يزال فى درجة الوأد وربما أشد، لأن الموت موت ونهاية، أما الوأد الروحى فإنه موت بطىء يتكرر كل لحظة، وهذا من الإيحاء النبوي الذي تكون الكلمات فيه ذات أرواح تشع بدلالات متعددة، لا تقف عند ظاهر النص دون تعسف أو لى لأعناق الألفاظ على غير مرادها وهى ما أشرنا اليه بالإيجاز المليء بالمعانى الثوانى.

ثم جاء قوله منع وهات ودلالتهما منع الواجبات من الحقوق وأخذ ما لا يحل من الأموال، بهذه الصيغة الموجزة كذلك تمشيا مع السياق العام فى الحديث القائم على الإيجاز وقد تكررت هنا السجعة فى كل فقرة دون تكلف حيث الأمهات والبنات وهات.

وقد عطف النبى ﷺ على هذه المحرمات الثلاثة قوله (وكره لكم) ولا تقل هذه الصيغة عن الأولى فمن الكراهة ما هو كراهة

تحـريم، ومنه مـا هو أشـد ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ لكننا نرى أن الأوائل من المحـرمات المغلظة الحـرمـة، لأن المكروه هنا ثلاثة أشياء أيضا هى فضول القول، وسقط الكلام، وكثرة كلام المرء يكثر بها سقطه، والسقط مـدرجـة إلى بعض الحـرمـة التى ترتكب حين ينفلت اللسـان بالقيل والقـال، فـهنا باب من نوع سـد الذرائع المفضية إلى الفضل وإلى الصون.

وعطف علية كثرة السؤال، وكثرة السؤال باب من أبواب العلم والمعـرفـة، ولا يمكن أن يكون المراد بـها هذا لـكن المراد بهـا المراء والجدال، والسؤال عـمـا لا يعنى السائل وكلها مـفضيـة إلى الكذب وإضاعـة الوقت فيما لا يفـيد، وربما كـان المراد بهـا فى زمنه ﷺ كثـرة السؤال خشيـة أن تكون الإجـابة بفرض تكاليف ليست فى الذرع لدى السـائلين، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

ثم جاء ختام الحديث عن إضاعـة المال، ويلزم منه إنفاق المال، فى غـيـر وجـوهه المشـروعـة، ولذلك عـبـر بالإضـاعـة بدلا من الإنفاق، لأن الإنفاق مجعول فى وجوهه الشرعية، لأن المال أصلا جعل لانفاقه لا لاكتنازه، فالتعبير هنا دل على الوجه القبيح فى الإنفاق وهو إضاعة المال والسرف فيه دون حدود الشريعة وحدود المعقول.

والجمل الثلاث جاءت كذلك موسيقية بالسجع الموجود فيها قيل وقال، والسؤال، والمال، وهى ثلاث سجعات تناصى السجعات الثلاث الأول فى الجزء الأول من الحديث وهذه الفواصل الموسيقية تعين المستمع على التلقى وعلى الحفظ، وتزيد بهاء الكلام.

كتب للمؤلف

أولا: الشعر:

١ ـ الخوف من المطر.

٢ ـ لزوميات وقصائد أخرى.

٣ ـ هدير الصمت.

٤ ـ مقام المنسرح.

٥ ـ أغانى العاشق الأندلسى (حاز جائزة يمانى الثقافية).

٦ ـ زهرة النار (حاز جائزة البابطين).

٧ ـ صائد العنقاء ـ تحت الطبع.

ثانيا: التحقيق:

١ ـ حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطى.

ثالثا: المترجمات:

١ ـ خاتمان من أجل سيدة (مسرحية حازت جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة الإبداعية مع نوط الامتياز من الطبقة الأولى).

٢ـ قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية (حازت جائزة ابن تركى فى ترجمة الشعر).

٣ ـ خمس مسرحيات أندلسية.

٤ ـ قلبان وظل.

٥ ـ حقول عدن الخضراء.

٦ ـ مقامات ورسائل أندلسية.

٧ ـ فصول من الأندلس فى الأدب والنقد والتاريخ.

٨ - القونت لوقانور - ترجمة ودراسة.

٩ - تأثيرات عربية فى حكايات إسبانية.

رابعا: الدراسات:

١ - المازنى شاعرا.

٢ - فى الشعر العُمانى المعاصر.

٣ - أدب ونقد.

٤ - دراسات نقدية.

٥- شعراء ما بعد الديوان (ثلاثة مجلدات).

٦ - فى الحديث النبوى - رؤية أدبية.

الفهرس

الإهداء	٥
بين يدى الكتاب	٧
الحديث الأول	٩
الحديث الثانى	١٣
الحديث الثالث	١٧
الحديث الرابع	٢٠
الحديث الخامس	٢٣
الحديث السادس	٢٧
الحديث السابع	٣٠

الحديث الثامن ٣٣

الحديث التاسع ٣٧

الحديث العاشر........................ ٤١

الحديث الحادى عشر........................ ٤٤

الحديث الثانى عشر ٤٨

الحديث الثالث عشر........................ ٥٢

الحديث الرابع عشر ٥٥

الحديث الخامس عشر........................ ٥٩

الحديث السادس عشر ٦٢

الحديث السابع عشر ٦٦

الحديث الثامن عشر ٦٩

الحديث التاسع عشر ٧٢

الحديث العشرون ٧٥

الحديث الحادى والعشرون ٧٩

الحديث الثانى والعشرون ٨١

الحديث الثالث والعشرون ٨٤

الحديث الرابع والعشرون ٨٦

الحديث الخامس والعشرون ٨٩

الحديث السادس والعشرون ٩٢

الحديث السابع والعشرون ٩٥

الحديث الثامن والعشرون ٩٨

الحديث التاسع والعشرون ١٠٢

الحديث الثلاثون ١٠٥

الحديث الحادى والثلاثون ١٠٨

الحديث الثانى والثلاثون ١١٢

الحديث الثالث والثلاثون ١١٦

الحديث الرابع والثلاثون ١١٩

الحديث الخامس والثلاثون ١٢٢

الحديث السادس والثلاثون ١٢٦

الحديث السابع والثلاثون ١٣٠

الحديث الثامن والثلاثون ١٣٣

الحديث التاسع والثلاثون ١٣٧

الحديث الأربعون ١٤١

كتب للمؤلف ١٤٥

